الطبعة الثانية

رواية

هشام الخشن

ماوراء الأبواب

كيف عاش هؤلاء الأثرياء؟

الدار المصرية اللبنانية

رواية

ماوراء الأبواب

كيف عاش هؤلاء الأثرياء؟

الخشن ، هشام .
ما وراء الأبواب : كيف عاش هؤلاء الأثرياء؟ / هشام الخشن
. ــ ط2. ــ القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، 2011.
184 ص ؛ 21 سم
تدمك : 7 - 655 - 427 - 977 - 978
1 ــ القصص العربية.
أ- أمين ، جلال (مقدم)
ب - العنوان . 813
رقم الإيداع : 24137 / 2010

©
الـــدار المصـــريـــة اللبنـــانيـــة
16 عبد الخالق ثروت ــ القاهرة .
تليفون: + 202 23910250
فاكس: + 202 23909618 ــ ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

الطبعة الأولى : صفر 1432 هـ ـ يناير 2011 م
الطبعة الثانية : صفر 1433 هـ ـ يناير 2012 م

رواية

ماوراء الأبواب

كيف عاش هؤلاء الأثرياء؟

هشام الخشن

تقديم

جلال أمين

الدار المصرية اللبنانية

تقديم

الأدب الجميل له مئات الأصناف، ويأتي في مئات الأشكال والألوان. وقد يقطع المرء بأن هذا العمل الأدبي أو ذاك عمل جميل، أو جميل جدا، ولا يتردد في إيصاء الناس بقراءته، ومع ذلك يجد صعوبة في شرح الأسباب.

قيل مرة إن الكلام عن الموسيقى هو كالتعبير بالرقص عن شكل معماري، أي أنه أمر صعب جدا وأحيانا مستحيل. هناك طبعا من الأعمال الأدبية الجميلة، مثل بعض الموسيقى الجميلة، ما يكون الكلام عنها وتحليلها أسهل من الكلام عن غيرها. ولكن حتى في هذه الحالات يظل من الصعب أن تنقل بالكلام ما أثاره فيك الفن الجميل من مشاعر.

هكذا كان شعوري عندما انتهيت من قراءة هذه الرواية الجميلة (ما وراء الأبواب). قرأتها مرتين، وكان شعوري في الحالتين أنها من أجمل ما قرأت من روايات في السنين الأخيرة. نعم، وجدت من الصعب تفسير هذا الشعور، ولكني وجدت المحاولة من بواعث السرور.

الرواية صغيرة الحجم، ومع هذا فهي ترسم لوحة كبيرة المساحة، تضم عددا كبيرا من الرجال والنساء، وعددا كبيرا من الأحداث، بعضها

مأساوي. والرواية تثير الكثير من الأشجان وتصف كثيرا من العواطف المتباينة أشد التباين، ومع ذلك لا يشعر القارئ بأن المؤلف متعجل، ولا بأنه لم يوف عاطفة معينة حقها من الوصف، فإذا بالنتيجة لوحة رائعة لعدد كبير من الناس، متناسقة الألوان، وتغريك تفاصيلها بالاقتراب منها لمزيد من التأمل.

من المدهش أيضا أن من بين كل هؤلاء الرجال والنساء، وعلى الرغم من اختلافهم الشديد في الطباع والميول، ليس هناك شخصية واحدة شريرة، أو باعثة على الكراهية، أو الاحتقار (ربما باستثناء شخصية واحدة ثانوية جدا لرجل بلطجي أمريكي).بعض الشخصيات أقوى من بعضها الآخر، أو أذكى، أو أعمق، ولكن لا تنطوي أي منها على مشاعر شريرة. كلها بها جانب أو آخر من جوانب الضعف الإنساني؛ مما قد يدفع بعضهم إلى أن يخطئوا في حق آخرين، وكلهم معرضون لما لا يمكن رده إلا إلى تصاريف القدر، ومن ثم فالجميع يستدرون منك العطف، وبعضهم يستدرون منك الحب أيضا.

الكاتب، هشام الخشن، حكَّاء من الطراز الأول. من أول فقرة في الكتاب يمسك بيدك بقوة ويحثك على السير معه والإنصات له حتى يُتم القصة كلها. وخلال ذلك يقدم لك أشياء جميلة حقا: مشاعر عميقة توصف بمهارة، حوارات قصيرة ولكنها تنقل لك بنجاح ما يجري في أذهان وقلوب المتحاورين، جرأة في وصف ميول غير عادية، ولكن دقة الوصف تقنعك بأن هذه الميول ممكنة الحدوث جدا، أحداث مفزعة تحدث انقلابات في طريقة تفكير بعض شخصيات الرواية، ولكن الانقلاب يُروى بطريقة مقنعة جدا فلا يبدو غريبا بالمرة. وبالإضافة إلى كل هذا، وربما الأهم منه،

ما ينقله لك الكاتب من قدرته على التعاطف مع مختلف المواقف المتباينة (وليس مجرد تفهمها)، وإبراز العنصر الإنساني فيها جميعا. لا عجب إذًا أن يكون الشعور النهائي الذي تخرج به من الرواية شعورا بالتعاطف الإنساني مع الجميع.

في العقود الأخيرة ساد في الإنتاج الروائي والقصصي في مصر اهتمام بالغ بالمشاكل الاجتماعية والسياسية، وتركيز شديد على الجوانب المختلفة للانقسام الطبقي في مصر، وما تلاقيه الطبقات الدنيا من عذاب في حياتها اليومية. وقد ظهرت روايات وقصص جميلة حقا وكثيرة في هذا الباب. الرواية الحالية (ما وراء الأبواب) ليست من هذا النوع. فليس هناك مساس من قريب أو بعيد بالمشكلة الطبقية أو أي مشكلة اجتماعية. هناك طبعا مشاكل، ولكنها إنسانية ونفسية من النوع الذى يمكن أن يصيب الغني والفقير، ولا يمكن تفسيره تفسيرا اجتماعيا.

الرواية بهذا المعنى ليست إذًا من النوع المألوف للقارئ المصري في الوقت الحاضر. ولكني لا أحتاج إلى القول بأننا نحتاج إلى هذا النوع من الكتابة مثلما نحتاج إلى النوع الآخر السائد في مصر الآن، أو بالأحرى نحتاج إلى أعمال جميلة من النوعين. إن الهدف من الأدب الجميل في النهاية هو النفاذ إلى أعماق النفس الإنسانية، ولتحقيق ذلك، كما ذكرت في البداية، هناك مئات الطرق. ولا شك عندي في أن هشام الخشن قد نجح نجاحا باهرا في هذه الرواية في الوصول إلى هذا الهدف.

جلال أمين

2010 / 11 / 1

مقدمــة

هناك قصة شهيرة تُروى عن الفيلسوف اليوناني الأشهر سقراط:

جاءه يومًا أحد معارفه وهو يلهث قائلًا : سقراط ، أتريد أن تعرف ما سمعته اليوم عن دياجونيس؟

رد عليه سقراط : انتظر لحظة ؛ قبل أن تقول أي شيء سأخضعك لاختبار التنقية الثلاثي .

تساءل الرجل : التنقية الثلاثي!

رد سقراط : نعم . أول تنقية هي للحقيقة .. هل تأكدت دون شك أن ما ستقوله لي هو الحقيقة ؟

رد الرجل : في الواقع لا ، لقد سمعت القصة للتو .

قال سقراط : إذا أنت لا تدري إن كانت حقيقية أم لا ، ننتقل إلى خطوة التنقية التالية : الحسن .. هل ما أنت بصدد قوله لي عن دياجونيس شيء حسن ؟

الرجل : بل على العكس من ذلك ..

سقراط : فأنت إذا تريد أن تقول لي عن دياجونيس شيئا سيئا وأنت غير متأكد من حقيقته .

صمت الرجل خجلا .

سقراط : مازال لديك فرصة للنجاح في الاختبار . آخر مراحل التنقية : الفائدة . هل ما ستقوله فيه فائدة لي ؟

اعترى الرجل الخجل وهو يقول لسقراط : لا، ليس مفيدًا لك بل قد يؤذيك .

سقراط : فإذا كان ما تريد قوله غير حقيقي ولا حسن ولا مفيد ، فلم تريد قوله لي أو لغيري ؟

لا تتوقف القصة عندما تصل إلى هذه الحكمة من سقراط ؛ لأن الخبر الذي كان يحمله الرجل كان:

«أن زوجة الفيلسوف كانت تخونه مع دياجونيس !!!»

حضرتني هذه القصة حين بدأت أكتب هذه المقدمة لأن أحداث أي رواية أو قصة دائما ما تكون من وحي الخيال ما لم تكن مذكرات شخصية أو قصة حياة إنسان . فالرواية الجيدة تلمس بواطن وخبايا النفس البشرية ، الحلو منها وفي الأكثر المر، تستكشف كيف يتعامل البشر مع الموقف وما هي ردود أفعالهم حين يتعرضون لغير المألوف أو المتوقع .

قبل أن أمضي للتالي بقي أن أشير إلى أن هذه القصة عن سقراط في الأغلب غير صحيحة؛ لا لشيء سوى أن دياجونيس المشار إليه فيها فيلسوف ومؤرخ يوناني ولد بعد وفاة سقراط .

في رواية «ما وراء الأبواب» قصة ودراما عائلة من أغنياء مصر الحاليين، ليسوا أثرياء فساد أو نفوذ ، بل في الأغلب كدُّوا حتى وصلوا لما هم فيه.

ثراؤهم ليس محرك الأحداث قدر ما تحركهم مشاعرهم وأحاسيسهم. بعض هذه المشاعر أحلام ومزيد من الطموح والبعض الآخر ضعف إنساني وانتهاز لفرص من أجل تحقيق مآرب شخصية .

إن أغلبنا تتضمن أهدافه الحياتية أن يصل إلى هذا القدر من الغنى والثراء حتى وإن حاول كثيرون منا الإسدال على هذه الرغبة تحت ستار الرضا والحمد ، في حين أنها رغبة في غاية التناغم مع الطبيعة البشرية .

مارك توين لخص هذا في بساطة شديدة حين قال :

أنا ضد المليونيرات ولكن سأكون خطيرًا إذا ما أصبحت أحدهم .

أما أفلاطون فقد تساوى لديه الفقر والغنى حين ألقى بحكمته المأثورة قائلًا:

الغنى أبو الترف والخمول ، والفقر أبو الخسة والدناءة ، وكلاهما مولود لعدم الرضا .

الجميع يرزح بشكل أو بآخر تحت ضغط ما من صنع الإنسانية ، وإن كنا جميعا أناسا ذوي مشاعر وكينونات هي ما هي ، أثرياء كنا أو معدمين.

في هذا يقول أحد أعظم الساخرين المصريين صلاح جاهين في رباعيته الجميلة :

مع إن كل الخلق من أصل طين

وكلهم بينزلوا مغمضين

بعد الدقايق والشهور والسنين

تلاقي ناس أشرار وناس طيبين

رحلة البحث عن اسم للرواية كانت مضنية؛ فقد اختلفت آراء من حولي . أردت أن أجد اسما يعبر عن المحتوى دون تهكم أو إثارة ليست في محلها، خاصة أني أردت أن أبتعد عن اتجاهات في تسميات لبعض الكتب المعاصرة لست بصدد نقدها، لكني لم أرد أن يكون كتابي جزءًا من تلك الموجة المحدثة. استمر البحث حتى أرشدتني ابنتي الكبرى نادين إلى أن الكتاب في بساطة يروي أسرار عائلة أو بالأحرى ما لا يمكن أن نتوقع أن يكون حادثًا وراء أبوابهم. بساطة منطق نادين أنهت رحلة البحث و أعطت المولود اسما: «ما وراء الأبواب».

لن أثقل بأكثر من هذا ، وإن أردت أن نتذكر قول القس ديزموند توتو :

أنت لا تختار عائلتك ، فهم هدية الله لك ، كما أنت هديته لهم .

هشام الخشن
نوفمبر 2010

نمضِي وتبقَى العيشةُ الراضيهْ

وتَنْمَحِي آثارُنا الماضيهْ

فقبْلَ أن نحيا وبعدَنا

وهذه الدُّنيا على ما هيهْ

عمر الخيام

الفصل الأول

ذهاب

1979

لم يكد صوت السيدة في مكبر الصوت يتوقف حتى أمسكتني أمي من معصمي، وبدأت في جذبي نحو باب الخروج من المطار. كانت يد أمي حازمة وإن خففتها نظرتها الحانية وصوتها الهادئ وهي تطلب مني الحركة.

كان أبي يسبقنا بخطوة أوخطوتين، حاملا حقيبة في يد ومتفحصا الأوراق التي بيده الأخرى. كنت وكأني أتدحرج محاولة اللحاق بخطوة أبي العسكرية في زحفها نحو باب الخروج.

حين أصبحنا خارج المبنى أغشت أشعة الشمس الساطعة عيني. بعد لحظة أوأقل انقشعت الغشاوة؛ لأرى أمامي طائرة أوطائرتين كبيرتين تربضان على أرض المطار أمامنا.

ما زال أبي يسبقنا مقسّما نظراته ما بين النظر أمامه والإطلال خلفه، متابعا محاولات أمي وأنا، اللحاقَ به، يهدئ خطوته لحظة كي نلحق به ثم ما يلبث أن يسرع مرة أخرى وكأنه يخشى أن يخلف موعدًا.

لا أعرف لماذا، ولكن نظرته في هذا اليوم محفورة في ذاكرتي، نظرة لم أفهمها حينئذ لصغر سني، وإن فهمت عمق وحشته حين استرجعتها لما كبرت.

ما زالت أمي تجرني بحزم وحنان في سعيها اللحاق بأبي.

بدأت تداعب أذنيَّ أصوات تنادي اسمي، أو هكذا تخيلت. لم يكن صوتا واحدًا بل مجموعة منها:

«فريدة... فريدة»

لا يقطع النداء سوى صوت أوصوتين أجشين يناديان والدي:

«يوسف.... جو»

قبل أن أنظر خلفي من حيث تأتي الأصوات كنت أعرف من المنادون.

أدرت رأسي باحثة عن وجوه أصحاب الأصوات التي أعرفها جيدا فلم أرَى أي وجه معروف لديَّ، أوعلى الأقل على مستوى نظري. لمحت أبي ملتفتا ناظرا إلى أعلى فوجهت عيني حيث ينظر فلمحتهم جميعا.

على الشرفة أعلى الباب الذي خرجنا منه، رأيت جدتي فريدة، سمعت صوتها الدامع يناديني. تحسست جبهتي حيث كانت دموعها قد بللتها وقت احتضنتني حتى كادت تخنقني قبل أن ندخل المطار.

جدي وقف بجانبها ينادي داعيا:

«في حفظ الله يا يوسف»

كما أتذكر، ظل مكرِّرا نفس العبارة وبنفس الرتابة وهو يلوح تجاهنا مودعا.

طُفت بعينيَّ عبر جدي وجدتي لأتوقف عند وجه «عمو عمر»؛ لم أر ابتسامته الدائمة هذه المرة وإن سمعته يقول:

«ها توحشيني يا فريدة، خللي بالك من ماما وبابا»

إلى جواره وقف كل من شريف وهبة أولاد «عمو» فهمي، كانا صامتين، أو بالأحرى شاردين. لم أسمع صوتيهما يناديانني أو يناديان أبي أظنهما محدقين في الطائرات الموجودة على أرض المطار. إلى جوارهما أمهما «طنط» آمال، بلا أي تعبير على وجهها. وعيناها زائغتان بلا هدف وكأنها لا تدري إلامَ تنظر. لم أكن أدري وقتها أن العيون تزوغ حين تمل أيضا. إذا لم تخني الذاكرة لم يكن «عمو» فهمي موجودا، أو لعلي لم أره. المؤكد أني رأيته في المنزل قبل أن نركب السيارة إلى المطار.

صوت عمتي نادية جعل عينيَّ تحطان على وجهها الجميل؛ لأرى ابتسامتها العذبة وهي تحمل ابنتها مها. كان شعر عمتي الأسود الداكن منسدلا على كتفيها، ومرة أخرى تمنيت أن يكون لي مثله بدلا من شعري الأشقر الذي أخذته عن أمي.

«طنط» نادية كانت جميلة جدا، الكل يراها تشبه «سعاد حسني» التي نراها في التليفزيون وإن كنت أراها أجمل، دائما ما أحببت طريقة تصفيف عمتي لشعرها ومنيت نفسي حين أكبر أن ألبس فساتينها القصيرة وأحذيتها اللامعة. «عمو» مجدي زوج عمتي وقف بجوارها دون حراك وكأنه تمثال، تمثال للرجل البدين ممسكا بيده «حازم» ابنهما وصديقي. حين رأيت «حازم» التقت عينانا فابتسمنا في آن واحد، أظنه سمعني وأنا أناديه لأنه لوح إليَّ بيده واستمر في التلويح. استبدلت بندائي لحازم تلويح ذراعي واتسعت ابتسامتي.

أحسست بأمي وكأنها ترفعني إلى أعلى، رفعت رجلي لأجد نفسي صاعدة إلى أتوبيس المطار. لم تكن أمي تنظر إلى الوراء حيث الشرفة... لعلها لم تجد حاجة إلى ذلك، فلم أسمع أحدًا يناديها. أدركت أنها على حق؛ لأن أذنيَّ لم تلتقطا أحدًا ينادي:

«مارجريت» أو«مارجو»

لم أسمع جدتي تناديها «فاطمة» كما يحلو لها، الاسم الذي لم أكن أفهم لماذا تصر على أن تنادي أمي به، والذي كانت أمي ترد عليه بدرجة الضجر نفسها كل مرة.

مع إغلاق الأتوبيس أبوابه انقطع تدفق النداءات. لم أعد أسمع لا «فريدة» ولا «يوسف» ولا «جو».

توقفت سيمفونية الأصوات، واشتد تلويح الأذرع والتي رأيتها من شباك الأتوبيس. أجبرتني هزة حركة الأتوبيس أن أركز في تثبيت قدمي حتى لا أقع. لم أسلم من مفاجآت دورانه ورعشة محركه، فقد فقدت توازني عدة مرات قبل أن يتوقف عند سلم الطائرة.

حين نزلت وقبل أن أطأ أول درجة من درجات سلم الطائرة، نظرت نظرة أخيرة إلى شرفة المطار. كانت بعيدة وإن كنت استطعت أن أميز بعض الواقفين هناك. جدي وجدتي وعمي بدوا وكأنهم تسمروا في مكانهم حيث تركتهم، وقد تحرك الباقون متجمعين خلفهم. استرجعت - عن بعد - نظرات شوقهم التي كانت آخر ما رأيت قبل صعود الأتوبيس.

في الطائرة وضعتني أمي على الكرسي بجانب النافذة، ومنها نظرت إلى الخارج متأملة.

أحسست بالطائرة تتحرك، ومع الإقلاع بدأ حجم ما على الأرض يصغر رويدا رويدا ونحن نرتفع في الجو.

بدأ ذهني يخلو من وجوه عائلتي التي تركتها على الأرض، وبدأ خيالي يسترجع ما حكته لي أمي عن بلدها أمريكا، التي نحن ذاهبون إليها.

***

الفصل الثاني

... وعودة

2010

بدأت الطائرة في الهبوط وبدأت أضواء المدينة تبدد ظلام السماء. من شباك الطائرة رأت فريدة القاهرة متلألئة بأضواء شوارعها وسياراتها. كم هي جميلة دائما القاهرة ليلا حين تراها من السماء، وكم هي قبيحة نهارا، سواء رأيتها من أعلى أومن أسفل. قباحة اللاعودة واليأس في الإصلاح، ولكن دمامتها لا تقلل أبدا من فرص الوقوع في غرام شخصيتها، مدينة تجذبك وتغوص بك لتحبها على علّاتها.

ثلاثون عاما مرت منذ تركتها فريدة طفلة، ثلاثون عاما لم تنقطع فيها الزيارات والإجازات. وفي كل مرة وكل زيارة تترك فريدة أمريكيتها لتعيش مصريتها ولو مؤقتا، مرة طفلة وأخرى مراهقة والآن سيدة في منتصف ثلاثينيتها، أجمل أزمنة المرأة كما يشاع.

حين توقفت الطائرة علا صوت الميكروفون:

"الأستاذ يوسف عثمان والعائلة، برجاء التفضل إلى مقدمة الطائرة»

فقط في مطار القاهرة، وفقط في الطائرة المصرية، من الممكن أن يحدث هذا. فبعد اثنتي عشرة ساعة من الطيران، يطلب من الجميع

الإفساح دون تذمر؛ ليمر صاحب السطوة الذي نودي اسمه.

ساعدت فريدة أمها من مقعدها وأمسكت يدها لتقودها إلى الأمام ويوسف يتقدمهما إلى مقدمة الطائرة.

تفحصتهم أعين الركاب المصريين وهم يمرون، محاولة معرفة من هم - هذه المرة - الذين فرضوا عليهم الانتظار وحظوا بهذا التمييز. واستغربت أعين الركاب الأجانب مفاجأة مما يحدث، وإن تعامل معتادو زيارة مصر منهم مع الموقف، على أنه جزء من إجراءات دخول البلد.

عند باب الطائرة وقف رجل أنيق، في بدلة ورباط عنق شديدي الترتيب. على الفور أدركت فريدة وعائلتها أنه لابد أن يكون مدير العلاقات العامة بشركات العائلة. مد له يوسف يده بأوراق السفر، أخذها واستدار وأسرع الخطى نحو شباك الجوازات وكأنه في سباق. حين لحق به يوسف وفريدة ومارجو بعد حين، وقف مبتسما فخورا بإنجازه وضابط الجوازات يومئ برأسه لهم بالمرور.

حين توقف الركب عند «سير» الحقائب، بدا وكأن مدير العلاقات العامة قد أصيب في مقتل، وأن كرامته المهنية والشخصية قد تبعثرت. التفت إلى يوسف وقال: «العفو يا فندم، معقولة حضرتك ها تقف تستنى. اتفضل السيارة في انتظاركم. انا ها جيب الشنط واحصلكم على البيت. اتفضل يا فندم، اتفضل».

بدأ يوسف السير نحو باب الخروج حين ذعرت أمريكية مارجو التي تساءلت:

«ماذا عن حقائبنا؟!». ابتسم يوسف وشرح لها؛ لم تفهم مارجو، وإن اعتادت على عجائب مصرنا. أبدا لم تفهم الأمريكية أن عائلة زوجها أصبحت من الفئة فوق الممتازة في مصر، الفئة التي لا تسري عليها كل القوانين. مال يوسف على فريدة ضاحكا وهو يقول:

«تعرفي تطلعي من مطار في أمريكا من غير جوازك؟؟»

حين ركبت فريدة السيارة السوداء الفارهة التي بانتظارهم استدعت ذاكرتها مشهد سفرها - أول مرة - إلى أمريكا قبل ثلاثين عاما. سمعت أصوات العائلة وهي تناديها من شرفة المطار، ومارجريت تجرها في حنان لتصعد إلى الأتوبيس، ثم إلى الطائرة. في عينيها طغى شجن بسيط، وهي تقارن تجمع كل من تحب في هذه البلد مودعين، واستقبال مدير العلاقات العامة لها قبل قليل.

سريعا ما وصلت بهم السيارة إلى البرج العالي بمصر الجديدة، أحد مشاريع شركات العائلة. ثوان وفتحت أبواب العمارة الكهربائية، وأصبح الجميع في البهو الرخامي الفخم أمام المصعد. علق يوسف بأن هذه العمارة من الممكن أن تنقل وتوضع كما هي في أغلى شوارع العالم؛ شانزليزيه باريس أوبارك لاين لندن دون حاجة لأي تغيير. ضحكت فريدة وهي تذكره بالمشتري الذي ما أن سمع سعر الشقة في البرج إلا وتساءل إن كانت تطل على الهايد بارك.

ولكن فريدة ما لبثت أن غاصت في ذكريات البيت الذي عاشت فيه، قبل هجرة عائلتها إلى أمريكا. لم يكن به مصعد وكان نور سلمه دائما

خافتًا. صممه مهندس إيطالي في أوائل القرن العشرين، واشتراه جدها من مالكه اليهودي وقت خروجه من مصر في الستينيات. لم يكن فخمًا ولكن كان به ألفة وأمان. بابه الحديد يقودك إلى رخام نجح في صراعه مع الزمن. تذكرت جريها هي وأقرانها على تلك السلالم؛ حتى يصلوا إلى باب العمارة فيردعهم وجه عم آدم البواب النوبي بأسنانه ناصعة البياض ونظرته الحازمة ليعودوا من حيث ركضوا. لم يكن بالعمارة سوى جدودها وأعمامها وعمتها وأولادهم، كانت عمارة تشع بدفء الأحباب، وتضج بصياح أطفال يشبون سويا. حزنت فريدة حين تذكرت كيف انتهت العمارة إلى أنقاض؛ ليحل محلها أول برج من أبراج الشركة. تذكرت الصراع والمقاومة التي دارت بين أفراد العائلة وكيف فرض عليهم عمها فهمي القرار. كادت تدمع حين تذكرت ما حكته لها جدتها عن نحيب «عم» آدم يوم أخلوا العمارة ليبدأوا الهدم.

عادت فريدة من غفوة الذكريات حين توقف المصعد في الدور الأخير الذي تسكنه جدتها. كان الباب مفتوحا، خفق قلبها وهي تدخل، أول مرة ترى جدتها منذ رحل جدها عن عالمنا. لم تميز إن كان انقباض قلبها لأنها لن تجد جدها في انتظارها أو لأن جدتها ستلومها لأنها لم تحضر عزاءه قبل عامين. من يومها وهي تحس تغيرًا في نبرة صوت جدتها كلما كلمتها على التليفون. هل سيكون لقاؤهما كما اعتادت فريدة،كلما أتت إلى مصر؛ هل ستأخذها في حضنها كما أحباه الاثنتان؟ هل ستسيل دموع فرحة اللقاء من عيني الجدة على خديها كما اعتادت؟!

عندما دخلوا البيت،كانت جدتها على مقعدها في آخر الصالة، بدت من بعيد وكأنها تحاول أن تقف ولكن السن كان يعيقها. سبقت فريدة أمها وأباها وألقت بنفسها في حضن جدتها الذي اشتاقت إليه. ضمتها جدتها إلى صدرها وقبلتها قبلات متوالية على وجهها، ابتسمت فريدة حين أحست بالبلل على خديها. أحست بيد أبيها وهو يحتضن أمه فغدوا في عناق ثلاثي مؤثر. عناق صامت لا يحتاج أعضاؤه لتبادل الكلمات. مارجو وقفت على بعد خطوة وكأنها في انتظار أن تهدأ المشاعر لتأخذ نصيبها مما تبقى. حينما اكتفى يوسف وفريدة مؤقتا - من حضن الجدة، نظرت إلى مارجو مبتسمة وهي تقول:

«تعالي خدي نصيبك يا مارجو، ولا أقولك يا فاطمة زي زمان؟». كانت قد أقلعت عن مناداة زوجة ابنها بالاسم الذي تسمت به حين أشهرت إسلامها لتتزوج من يوسف، وإن لم تتخل عن تهديدها به مداعبة من حين إلى آخر.

نظرت الجدة إلى فريدة عاتبة:

«كده يا فريدة ما تجيش تشوفيني لما جدك مات. خلاص بقيتي أمريكانية على الآخر». قالت الجدة لفريدة ما حبسته في صدرها طوال السنتين الماضيتين وكأنها أرادت أن تخفي جرحها عن فريدة لحين اللقاء. لم تجد فريدة الأعذار التي كانت قد حضّرتها لتقولها لجدتها، وجدت نفسها تحتضن الجدة وعيناها دامعتان، وسريعا ما بدأت تبكي ولم تهدأ إلا

حين احتضنتها جدتها ووضعت رأس فريدة على صدرها. حينذاك عرفت فريدة أن فرمان العفو قد صدر.

لم يكادوا يتراصون في مقاعدهم إلا ودخلت نادية عمة فريدة. ما زالت على جمالها، مشيتها مثل عارضات الأزياء؛ جسدها مشدود وشعرها الأسود مُسدل على كتفيها، وجهها كما هو لم تظهر عليه تجاعيد الزمن حتى أنه لا يستطيع أن يتصور من يراها أنها على مشارف الستينيات. ما زالت نادية النضرة التي تتمنى فريدة أن تكون وصلتها جيناتها حتى تضمن أن تشيخ بجلال وجمال عمتها. مارجو التي في سن نادية بدت وكأنها تكبرها بعشر سنوات، وإن كان مرضها اللعين قد زاد الفجوة. نظرت فريدة إلى عيني عمتها فوجدت بهما سمة الحزن التي لم تفارقهما منذ عرفتها، وإن كان هذا الحزن الدفين قد أضاف إلى جمالها.

لم يكادوا ينتهون من أحضان وقبلات نادية حتى وصل حازم ابنها على كرسيه المتحرك. احتضن فريدة فهي توأمه الذي لم تلده أمه. كم هي قاسية الحياة حين تأخذ من اليافع حازم بهذه القسوة. حادث غبي بلا معنى أفقده للأبد القدرة على الوقوف وحوّل هذا الشاب الذكي المتوقد إلى فئة المعاقين.

أوقفت فريدة ذهنها عن استعادة الليلة الشؤم التي حدثت فيها المصيبة وهي التي كانت شاهدة عيان للحادث قبل خمس سنوات بأمريكا.

«فين عمو عمر؟» تساءلت فريدة.

ردت جدتها: «زمانه جاي يا حبيبتي، ما انت عارفة انه زي الوطاويط يظهر آخر الليل» وإن كان صوت الجدة لم يكن مصدقا أن ابنها الأصغر غير المتزوج كان سيترك سهرة الخميس ليرى أخاه وعائلته. كانت على قناعة أنه سيراهم على غداء يوم الجمعة بعد أن يتخلص من آثار السهرة الأسبوعية.

ولكن عمر فاجأ أمه حين دخل عليهم بعد خمس دقائق من سؤال فريدة عنه. شاب كما هو في آخر الخمسينيات، وسيم زاده شعره الأبيض وجاهة وجاذبية. جسمه ممشوق وكأن السنين وأسلوب حياته قد خسرا الصراع ولم يستطيعا النيل منه. بابتسامته الآسرة احتضن فرع العائلة الأمريكي الواحد تلو الآخر.

أدركت فريدة كم يحبها عمها عمر هي وأباها وأمها كي يترك سهرة خميسه دون أن تكتمل ليأتي ليراهم، ابتسمت وهي تفكر أنه في عرف عمر لا يوجد تعبير أكبر من هذا عن الحب.

نظرت فريدة في الجالسين حولها، فأدركت أنها لن ترى المزيد من أفراد العائلة هذه الليلة. عمها فهمي وزوجته وأولاده هبة وشريف وزوجيهما لابد أنهم بقصورهم بالقطامية، ومها ابنة عمتها نادية إما تقيم الليل أو نائمة منذ العشاء لتصحو قبل الفجر بساعة.

دارت بعينيها مرة أخرى فعلت وجهها ابتسامة حين رأت حولها من اشتاقت إليهم أكثر.

***

لم تستطع فريدة نوما كثيرا ليلة الوصول، ولكنها عادة كل زيارة لمصر، جزء من الأرق بسبب فارق التوقيت وجزء من إثارة الوصول مع وفرة الأشواق للعائلة والتطلع للأحداث التي لابد أنها واقعة أثناء الزيارة.

أخذت تتقلب في سريرها مستجدية النوم في محاولة لطرد السهد، ولكن دون جدوى. بدأ نور الصباح يتسلل من شباك حجرتها فأيقنت أن العودة إلى النوم أصبحت مستحيلة.

بدأت الحياة تدب في البيت. ها هي جدتها تبدأ جولاتها المصحوبة بتعليمات الصباح أثناء عبورها من الصالة إلى المطبخ. مناقشة طويلة وساخنة مع دادة هانم، لقد أوحشت فريدة هذه المناقشة أو المنافسة التي لا تنتهي بين العجوزين. مناقشة بدأت قبل أربعين عاما حين بدأت هانم العمل عند جدتها. عبر السنين أصبحتا أقرب صديقتين دون اعتراف علني بهذه الصداقة، وأصبحت مناقشاتهما وكأنها استعراض قوة بين غريمتين وليست أوامر بين سيدة وخادمتها، دادة هانم هي رفيقة عمر الجدة وهي توقن أن لها في البيت والأولاد مثل ما للجدة. الخلاف هذا الصباح كان عن نوع الفول حيث اتفقتا على كل شيء آخر ستشمله مائدة الإفطار.

لم يفت وقت طويل قبل أن تسمع فريدة صوت يوسف وهو ينضم إلى أمه في الصالة. لم يخذل توقعها، فسرعان ما طلب يوسف من أمه أن تعد

له فنجان (قهوة تركي) بيديها. تخيلت فريدة ابتسامة جدتها وهي تسارع لتلبية طلب ابنها.

قامت فريدة من سريرها وخرجت من غرفتها وفي نيتها أن تنضم إلى جدتها وأبيها. في طريقها إلى الصالة وجدت باب غرفة نوم أمها نصف مفتوح، نظرت إلى الداخل فوجدت مارجو مازالت نائمة. في ثانية كانت فريدة مستلقية جانب أمها محتضناها ويداها تلفها في حنان. أحست فريدة بجسد مارجو وكيف أصابه الوهن والضعف من جراء المرض وعلاجه، جلدها أصبح أبيض كلون الثلوج وشعرها أوما تبقى منه يكشف فروة رأسها. كتمت فريدة آهاتها وإن سالت دموعها في صمت ودون قدرة منها على التحكم فيها.

أحست بمارجو تتحرك، فخافت فريدة أن تكون قد أقلقت منامها، سارعت تفك يديها من حولها ولكنها فوجئت بأمها تمسكها وتضمها إليها.

«لماذا تبكين يا فريدة، ألم نتفق ألا نبكي، ألم تعديني بذلك؟»

فاجأ صوت مارجو فريدة فأدركت أن بلل دموعها قد أيقظ أمها.

فريدة: أنا آسفة لم أقصد إيقاظك.

مارجو: حبيبتي، هذه هي الحياة، أكثرها سعادة ورضا، ولكن لابد أن يكون بها لحظات شقاء واختبار. كما سعدنا غالبا، لابد أن تمر بنا لحظات صعبة، لابد أن نقبل هذه الصعوبات خاصة ولو كانت أوقات السعادة طويلة ومديدة.

فريدة: أعرف يا أمي، وأعرف كم أنت قوية ومتقبلة لما تمرين به.

مارجو: اسمعي يا فريدة، أتدرين لماذا لم أخف أبدا مما أمر به؟ لأنني جاهزة للقاء ربي الذي أظن انني لم أغضبه في حياتي، أوعلى الأقل لم أغضبه عمدا أبدا.

فريدة: أعرف يا أمي، أعرف.

مارجو: لقد أعطاني الكثير من الأسباب لأحمده، أبوك الذي ملأ حياتي سعادة وتفاهمًا ورضا، لم يسبب ألما أوضيقًا، حتى في خلافاتنا كان دائما يقدمني على نفسه وإن لم يقتنع.

وفوق كل هذا أعطاني أجمل طفلة في العالم.

فريدة: طفلة؟ هل لديك ابنة غيري؟

مارجو: ستظلين طفلتي حتى وأنت بين أحفادك يا فريدة.

فريدة: لولا أنك وزوجك يوسف والداي لكنت أول حاسديكما، أحلم يوما أن أقابل من أسعد معه ولو نصف سعادتكما يا أمي.

مارجو: ولكنكِ قابلتِه يا فريدة، أنت التي تعاندين نفسك وقلبك. فريدة، لا تظني أن حياتي مع أبيك لم يكن بها لحظات ضيق وعدم سعادة ولكن حبنا كان دائما يدفعنا للأمام ويجعل لحظات الشقاء خلفنا.

فريدة: احكي لي يا مارجو هانم، كم تحبين يوسف؟

مارجو: أحبه أكثر مما أحب نفسي. لقد نجح أن يجعلني أقع في غرامه صباح كل يوم جديد. لم يسئ إليَّ يومًا وكان يشعرني بالأمان اللانهائي. كنت أشاهد الأفلام العاطفية قبل أن أقابله فأضحك مع صديقاتي على كونها ضربًا من الخيال، ولكن مع يوسف اكتشفت أن أجزاء كثيرة من حقائق الحب لم تروها السينما بعد.

فريدة: لقد أصبحت شاعرة يا مارجو، وشديدة الرومانسية، أين أخفيت السيدة الحازمة التي ربتني كما الجيش؟

مارجو: أنا هنا، ولكنك لم تعودي في حاجة إلى الحزم، أنت فخري ومصدر بهجتي وكل ما تمنيت أن أراه وأنا أربيك. فريدة، لا تنسي ما أوصيتك به، ولا تنسي أبدا سبب هذه الزيارة إلى مصر.

فريدة: هل أنت متأكدة يا أمي؟ هل أنت متأكدة؟

مارجو: نعم يا حبيبتي، واعلمي أن أي شيء آخر سوى تلبية طلبي هذا لن يريحني. هذا أسهل وأسلس قرار أخذته في حياتي. لا صعوبة فيه لمن تحب كما أحب وتؤمن كما أؤمن. أنا واثقة أن ربي يتقبل ويتفهم قراري.

فريدة: وأنا أضمن لك تنفيذه يا أمي.

ران الصمت على الغرفة ومارجو وفريدة يحتضنان بعضهما ودموعهما تسيل على وجهيهما.

***

كلما رأى فهمي حديقة قصره الفخم في القطامية، تذكر «عم» آدم بواب العمارة القديمة وهو يعتني بحوض الزهور اليتيم الذي كان يزين مدخل العمارة، حيث ولد فهمي وعاش طفولته وشبابه وسنين زواجه الأولى. ولكن طيف «عم» آدم كان سريعا ما يتلاشى وفهمي يمتع نظره بجمال الحديقة، ويملأ أنفه وصدره بروائح زهورها. كان حينئذ يشعر أن كل دولار دفعه لمنسقي الحدائق الأمريكان كان في محله ومستحقًّا، وأنه حين استقدمهم لتصميم الحديقة وتنسيقها على نسق ديزني لاند ومشاريعهم العملاقة الأخرى،كان كالعادة يعقد صفقة ناجحة وصاحب رؤية صائبة. كان يعرف أن كل استرليني ويورو ودولار دفعه لمعماري إنجليزي ومهندسة ديكور فرنسية ومنسق حدائق أمريكي كان في محله، وأن ذلك ما جعل بيته وبيتَيْ شريف وهبة - ولديه - حديث ومَطل الصفوة في مجتمع أثرياء القاهرة.

جلس فهمي على كرسيه في الحديقة منتظرا انضمام باقي أفراد العائلة إليه، إنه ميعاد إفطار الجمعة المقدس، حين يجتمع شملهم؛ الوقت الذي يستريحون فيه من اللهث طوال الأسبوع في العمل المضني والأجندة الاجتماعية المتخمة.

في الطرف البعيد من الحديقة ربض بيتا شريف وهبة. بنظرة سريعة، أدرك فهمي أن المؤشرات والدلائل توحي أن كل من في البيتين نائمون.

رضا وراحة هما ما أحس بهما فهمي حين فكر فيما وصل إليه. ها هو واحد من أهم وأكبر وأغنى رجال الأعمال في مصر، قصة نجاح بكل المقاييس.

امبراطوريته متشعبة، استثمارات في مقاولات وصناعات دوائية وأغذية وعصائر، استيراد حبوب وتصدير فواكه بالإضافة إلى محافظ مالية في بورصات مصر ودبي ولندن ونيويورك عدد الأصفار على يمينها يزغلل الأعين. اسمه دائما على قوائم أغنى الأغنياء في مصر والشرق الأوسط.

قصة نجاح كما يجب أن تكون القصص. وليس بمعيار المال فقط، فها هو شريف ابنه خريج جامعة هارفرد في أمريكا التي لا يقدر عليها سوى النوابغ والأغنياء، وهو ساعده الأيمن كما تمنى دائما. وقد كلل فهمي نجاحه في شريف بأن زوجه ياسمين ابنة أحمد نعمان زميله في نادي بليونيرات مصر. وما أجمل ياسين وأدهم التوأم الذي حبا الله بهما شريف وياسمين. أما هبة فقد تخرجت هي الأخرى في الجامعة الأمريكية، وزوجها فهمي من الدبلوماسي هاشم خليفة سليل الأرستقراطية القديمة والذي انضم إلى وزارة الخارجية ليكمل إرثه عن جده وأبيه، لم يهتم فهمي بالغنى في اختيار هاشم قدر اهتمامه بالحسب والنسب. وإن كان هاشم لم يصمد طويلا، واختار طوعا أن ينضم إلى امبراطورية فهمي بدلا

من إضاعة وقته موظفا في الحكومة المصرية حتى وإن أصبح يوما سفيرا. هبة وهاشم أعطيا فهمي زينة وسيف،بنت وولد أجمل من بعضهما البعض وفي منتهى الشقاوة.

وآمال زوجته؛ لم يكن لدى فهمي شكوى منها. زوجة كما يقول الكتاب وكما يجب للزوجة أن تكون، غير مرهقة، دائما وراءه وتسانده، ربت الأولاد ولم تشغل باله كثيرا حين كان في مشوار صعوده وبناء امبراطوريته، المشوار الذي ما زال مستمرا وأبدا لن يتوقف. آمال كانت دائما متفهمة لاحتياجاته بل في أحيان سمحت له بنزواته حين احتاج أن يشرد. وإن كانت ما لبثت أن أعادته إلى جانبها كل مرة وهو يعلم أن هذا هوالمكان الذي يجب أن يرجع إليه. وكان دائما ما يرجع دون جلبة ولا شوشرة، سليما معافى وهي دائما متقبلة وفي انتظاره. لم يكن حبا بينهما بقدر ما هو تعود وأمان وألفة بالإضافة إلى تلاقٍ هائل في الرغبات والأهداف. كان يعرف أن آمال تشعر أنها شيدت كما شيد هو وأنها أبدا لن تترك ما وصلا إليه مهما كان الثمن أو التضحية.

أما أمه وأبوه وإخوته، فلم يكن فهمي أقل فخرا بما عمله لهم ولا المكانة التي أوصلهم إليها. دائما يتذكر كيف هاجموه جميعا حين أراد أن يبيع عمارة العائلة في أوائل الثمانينيات لتُهدم ويبني مكانها برجا. صراع خاضه معهم ضد سذاجتهم وعاطفيتهم والتمسك غير المفهوم بالمكان، ولكنه انتصر بالدهاء والحيلة. ما زال يتذكر حالة الذهول والاستنكار وما اتبعها من مقاطعتهم له يوم أخبرهم أنه باع العمارة بموجب التوكيلات التي

كانوا قد أعطوها له. كان يعرف أن هذا سيكون منتهى ردة فعلهم، أكيد لن يقاضوه ولن يحاولوا سجنه، هل يفضحون العائلة وينشرون غسيلها على الملأ؟ أبدا!!

لكن كانت لديه خطة كاملة لاستعادتهم، فقد كان يعرف تماما مواطن ضعف كل فرد منهم تجاهه. فأمه وأبوه كانا دائما يدللان يوسف لأنه مهاجر ومغترب، وعمر لأنه الصغير ونادية لأنها البنت الوحيدة؛ أما هو فيبدو أنهما لم يجدا سببا لتدليله، وقد غذى هو هذه العقدة لديهم؛ لذلك فمهما غضبا منه كانت عقدة عدم تدليلهم له ستلتمس له الأعذار لديهما. يوسف كان بعيدا، وقد حسب فهمي أن مقاومته لن تزيد عن بعض المكالمات التليفونية لمحاولة التهدئه في وسط صراعه ليشق طريقه في أمريكا. أما عمر فقد كانت نساؤه وسهراته ومغامراته وقود حياته، وقد استماله فهمي حين جهز له جرسونيرة في فترة بناء البرج، واشترى له سيارة آخر موديل، فانهارت مقاومة عمر وتقبل الوضع في صمت. أما نادية فكان مفتاح تحييدها هو زوجها مجدي صديق عمره الذي كان شريكه في العملية، بل كان الممول الرئيسي بالثروة التي ورثها عن أهله.

في الحقيقة إن فهمي لم يبع العمارة إلى أغراب، بل باعها إلى شركة أسسها مع مجدي وأعطى أسهما فيها لكل إخوته. صحيح أنه لم يساوِ بينه وبينهم في الأنصبة؛ فكان مجدي وأخوة فهمي هم الأقلية وفهمي صاحب نصيب الأسد، ولكن ما يملكانه اليوم كأقلية يجعل كلًّا منهما من أصحاب الملايين، بل لنقل من أصحاب مئات الملايين. كان فهمي راضيا عن

نفسه لأنه في ضميره لم يطمع، بل احتفظ بهذه الأقلية معه في كل شركاته ومشاريعه منذ مشروع العمارة، وكأنها تميمة حظه.

فهمي كان واثقا أنهم كلهم راضون الآن، وعلت وجهه ابتسامة وهو متأكد أنه إن طلب من أي منهم توكيلا سيعطيه له طواعية وفي منتهى السرور، بل إن مجدي – وهو ليس بأخيه – تارك له توكيلًا عامًّا ساريًا دون طلب من فهمي.

في قناعة نفسه لم يظلم، فهي عائلته وإن بدا أنه استغلهم، فالحصاد أنه صعد بهم إلى حيث يحلم الملايين من عوام الناس دون أن يقتربوا من تحقيق حلمهم. أما كونه صاحب النسبة الأعلى، فهي حلاله، ولم لا؟ وهو سبب الثروة والذي لا يكل ولا يمل من الاستمرار في زيادتها. «أغلبيته» ضريبة واجبة عليهم، مكافأة له على ما أوصلهم إليه.

«صباح الخير يا فهمي، قهوتك» قاطع صوت آمال حبل أفكار فهمي وهي تقدم له فنجان قهوته.

فهمي: صباح الخير، كلمتي الأولاد؟!

عندما تعد آمال قهوته تكون مقدمة لطلب كبير. لم تعد تحضر قهوته محبة كما في بداية زواجهما.

آمال: شريف يأخذ الآن حماما وسيحضر هو وياسمين، قلت لهم أن يبعثوا الأولاد حتى يجهزوا. هبة وأولادها في الطريق أيضا.

فهمي:أما من أمل في أن يحترم ولداك مواعيدهم أبدا ؟!

آمال: يا سيدي اليوم إجازة، دع الجميع يسترخون.

فهمي: بالمناسبة يوسف وفريدة ومارجو وصلوا أمس. أترين هل نعد لهم عشاء هنا يوما؟! فالغذاء اليوم عند «ماما»، نبهي على الأولاد، فهي تريد كل العائلة عندها اليوم.

آمال: أعرف، والأولاد عارفين وعاملين حسابهم... قل لي يا فهمي ألا تفكر أن تستريح قليلا وتقلل من أيام عملك؟ أعني تأخذ أيام إجازات أكثر، يومين ثلاثة كل أسبوع.

فهمي: أقلل، أستريح، لم؟ ومن سيسير الأعمال؟ ثم لم أرتاح...؟ أنا راحتي في عملي.

ربنا عندما خلقني خلقني كي أعمل. وأنا لن أتوقف مادام فيَّ نفس.

آمال: أنا لم أقترح أن تتوقف تماما، لكني أقول أن تهدأ قليلا، وتتمتع بما عملته. تقضي أوقاتا أكثر معنا، وتتمتع بأولادك وأحفادك وتمتعهم بك.

فهمي: أتمتع بإيه يعني؟ وكيف أتمتع؟ ما انا متمتع، كل حاجة عشر نجوم وأكثر. أنا سعادتي في شغلي، ثم حين أرتاح كما تقترحين، من سيقود العمل إن شاء الله؟

آمال: يا فهمي، أنسيت شريف ابنك، وكيف علمته وأين؟ في هارفرد، أحسن جامعة في العالم، وبعد ما تخرج - أكثر من 18 سنة - وهو يشتغل بجانبك ومعك ويتعلم منك كل شيء. ثم أنت ستبقى دائما بجانبه توجهه وتكمل له أي خبرة تنقصه، يعني مستشاره وموجهه.

فهمي: مستشار، أجننتِ؟ أنا أترك رئاسة الشركة؟ أنا على آخر الزمان أصبح مستشار الأستاذ شريف ابنك. «ياسلام»! حاجة حلوة جدا!! هل من اقتراحات أخرى سيادتك؟

آمال: ما أقوله وأقترحه لا هو حاجة غريبة ولا عجيبة يا فهمي، ثم أليس ابنك كما هو ابني؟! وسنة الحياة أن جيلا يسلم جيلا.نحن فقط نتناسى هذا الموضوع فجعلنا الجيل يسلم ثالث ورابع جيل. مرة ثانية يا فهمي، هذا ابنك شريف، الذي ظللت تربي فيه وتعلمه أحسن تربية وأحسن تعليم حتى يتولى الشركة يوما من الأيام ويريحك، أم أني مخطئة؟

فهمي: يومًا من الأيام، أكيد، لما أعجز أو أموت، وليس وأنا بصحتي وقادر يا آمال.

آمال: المتبقي ليس بقدر ما فات يا فهمي، فكر فيما أقوله وحاول التمتع بما تبقى. ثم ما أكثر متعة من أن ترى ابنك في أحسن مكان ومكانة؟ جميعنا لا يتمنى في حياته غير أن أولاده يكونون أحسن منه.

جرى التوأم ياسين وأدهم وقفزا على رجل جدهما فوفرا على فهمي عناء الرد والاسترسال في حديثه مع آمال. كالعادة ذاب الرجل الصلب وهو يتمتع بصحبة أحفاده؛ لا يذكر فهمي أنه دلل شريف أوهبة مثلما يدلل اولادهما. بل إنه متأكد أنه لم يحمل أولاده رُضَّعًا، في حين «الصالون» مملوء بصوره وهو مبتسم حاملا الأحفاد وهم أولاد أيام. ما زال يداعب ياسين وأدهم حتى ظهرت هبة ومعها زينة وسيف. جرى سيف وانضم إلى

أبناء خاله في حين تباطأت زينة برهة، فوقفت على بعد خطوة من جدها. كانت تعرف قدرها كحفيدة وحيدة على ثلاثة أحفاد ذكور. تنبه فهمي أن أميرته في انتظاره، فأزاح الأولاد الثلاثة وما لبثت أن أصبحت في حضنه.

زاد الصخب بوصول شريف ومعه هاشم زوج هبة. بدأت الأحاديث عن أحوال البلد، ومنها إلى آخر أخبار الشركة، وإن زجرتهم آمال بنظرة منعت الرجال من الاستمرار في حديث العمل. هبة كعادتها بدت شاردة وكأنها في بعد آخر، ولكنها أبدا لم يكن لديها ما تشارك به عائلتها الحديث. هاشم كان يؤدي هذا عنها بثرثرته التي لا تنتهي واستعراضه الدائم لمعلوماته وثقافته.

من بعيد ظهرت ياسمين تتهادى في طريقها إليهم عبر الحديقة التي تفصل البيوت عن بعضها، بجانبها شخص قصير غليظ القوام بالمقارنة إلى قوام الفراشة التي عليه ياسمين.

«مين اللي مع ياسمين يا شريف» سأل فهمي.

«دي ملك صاحبتها يا بابا»، رد شريف مترددا.

استطرد فهمي قائلا: «هي ملك عايشة معاكم والا إيه؟ وهي ياسمين ماعندهاش غير ملك؛ حاجة غريبة شوية علاقتهما ببعضهما، دول ولادك التوأم مش لازقين في بعض زي ياسمين وصاحبتها ملك دي!»

***

الابتسامة الواسعة المرسومة على وجه فريدة الجدة كانت أبلغ وصف للمشهد الجميل الواقع أمام عينيها ويمتعها. عائلتها كلها مجتمعة مبتسمة وضاحكة في منزلها، أولادها وأحفادها وأولاد أحفادها كلهم حولها، هل هناك أسباب سعادة أكثر من ذلك؟

فقط كان يشاغلها طيف زوجها عثمان وشوقها إليه وإلى وجوده، وجعل ذلك دمعة تفر من عينيها وإن لم تنجح في إطفاء ابتسامتها، دمعة أسرعت إلى مواراتها واستمرت في التمتع بما عاشت حياتها من أجله.

بعد السلامات والأحضان والقبلات، انقسمت العائلة إلى مجموعات معرفة بالجيل والنوع؛ الأخوة الثلاثة ومعهم مجدي زوج نادية في ناحية، والاتحاد النسائي بعضواته نادية وآمال ومارجو مرءوسا بالجدة فريدة انعقد في الطرف الآخر وبجانبهن كانت البنات وإن لم يصبحن بنات بل غدون سيدات ناضجات وأمهات، فالتمت فريدة مع هبة ومها وياسمين.... وملك.

وفي الركن الأخير من البيت جلس شريف وحازم وتامر زوج مها، ومعهم هاشم الأجدر سنا أن يكون مع فهمي وشلته، لعل هذا كان الأقرب إلى قلبه.

في كل مجموعة وكل جلسة اجتمعت الأضداد، ياسمين جميلة كعادتها تلبس فستانا فرنسيا صورته كانت في مجلة موضة الشهر الماضي، يكشف ويخفي مفاتنها في الوقت ذاته، تجاورها مها بنقابها الذي لا يظهر سوى عينيها، وإن أبرز الكحل جمالهما.

كانت هناك أيام حين ارتدت ما هو أكثر عريا مما ترتديه ياسمين، ولعل غير المتابع لأخبارها منذ فترة لن يصدق أنها قد تنقبت، فكيف لمن لم تفتها سهرة ولا استمتاع بشمس شاطئ «بمايوهها البكيني» أن تصبح منتقبة. هبة وفريدة كانتا تلبسان المتناسق من الألوان غالي الثمن وإن كان غير ملفت.

ملك كالعادة كانت ترتدي الجينز وقميصا أقرب في ذوقه للرجالي، حتى تخال أنها ستكون أكثر انسجاما في جلسة أزواجهن. أحاديث عادية عن آخر أخبار كل منهن، وشوق ولهفة من هبة نحو فريدة حتى أنها اتفقت معها على أن يتقابلا في غدهن على انفراد.

تامر بوجهه وملامحه الأوروبية وقد طغت عليها لحيته الكثة كستنائية اللون، فبدا كمسلمي البوسنة. قميصه ماركة عالمية مشهورة وبنطاله قصير فوق كاحله عمدا كصحيح السنة كما قيل له. قباله جلس شريف أعز أصدقائه منذ الطفولة وكاتم سر مغامرات تامر ونزواته. كلما قابل شريف تامر منذ تأسلمه زاد استغرابه له، هل يعقل أن هذا صديق الجنون والمجون، أين تاه منه رفيق درب الزندقة؟ إن قصص فتوحاتهم وليالي سكرهم لا تكفيها مجلدات، من يصدق أن هذا المستمسك بالسنة اليوم هو ذاته الذي لم يترك رذيلة دون طرق بابها. حازم على مقعده المتحرك

مبتسما راضيا، قناعته وقبوله لما هو فيه كالعادة موضع إعجاب من حوله. الإعاقة لم تنل منه ولا قللت من دب الحياة بداخله وقوة تدفقها في شرايينه. هاشم كالعادة يقود أحاديث عن المجموعة، من آن للآخر يجادله حازم بمنطق ومعلومات محدثة، وتامر بما يستطيع أن يسترجعه من آيات وأحاديث نبوية مناسبة، وشريف بابتسامة تعلن عن تواجده وإن كان عقله ليس معهم، فهو حيث ربطته طموحاته التي لا تنتهي.

في هدوء ودون جلبة دارت أحاديث فهمي ويوسف وعمر ومجدي. الناظر إليهم يدفئ قلبه ألفة يوسف وعمر معا. ولا يخطئ تقارب فهمي ومجدي وكأنهما توأما روح. وقد كانا، فقد تلازما منذ أول لقاء لهما في الحضانة ومن يومه وهما أكثر من أخين وهما الأقرب إلى بعضهما من أي أحد آخر، علاقة وثق عراها زواج مجدي من نادية وشراكتهما في الأعمال والشركات.

نادية، طغى جمالها الصامت على جلسة السيدات وزادها تلألؤًا حلو حديثها. بدت مارجو بجانبها كشمعة في طريقها للانطفاء، شديدة البياض وواهنة. آمال عيناها دائما غير مستقرة ترقب وترصد كل من حولها، سواء في جلستها أوفي الجلسات الأخرى في أرجاء البيت فهي ملكة تفسير الحركة والإيماءة.

الجدة سعيدة بما تراه وتطرب أذنيها أصوات أحفاد أولادها وصراخهم في الحجرة التالية حيث يلعبون.

أصوات وضحكات ونظرات متبادلة وأحاديث لا تنقطع؛ عائلة مجتمعة سعيدة ولا يوجد ما يعكر صفوها.

صوت يتأوه يتبعه حشرجة عالية فرضت على الجميع الصمت والنظر تجاه مصدره: مجدي وقد انكفأ على صدر فهمي دون مقدمات، فمه مفتوح فاغر ولسانه يتدلى منه، عيناه زائغتان وغائرتان في حين واحد، وأصوات أنفاسه تبدو في طريقها للاندثار.

هرج ومرج، طبيب يصل ومن بعده آخر ومن بعدهما سيارة إسعاف، سارينتها تفض الجلسة وهي تحمل مجدي إلى المستشفى.

***

◆

الفصل الثالث

ومضات ذات بريق

نادية وحازم ومها مجتمعون في جلستهم اليومية أمام غرفة العناية المركزة بالمستشفى، أسبوع مضى ومازال مجدي في غيبوبته. أفراد العائلة يمرون يوميا ودوريا وإن قل معدل الزيارات. تليفونات الاطمئنان لا تنقطع وإن كانت ردود عائلة مجدي لا تزيد على الدعاء لله أن يشفيه وطلب الدعاء من المتصل. ولكن اليوم مختلف، فقد وصل مساء أمس طاقم الأطباء الأمريكيين بالطائرة الخاصة التي أرسلها لهم فهمي. بطريقته، أو لنقل بمعرفته للثمن استطاع فهمي أن يقنع أهم وأشهر طاقم أطباء متخصص في جلطات المخ أن ينسوا مواعيد المرضى في أمريكا، وأن يطيروا إلى مصر، ويفحصوا مجدي ليقرروا ماذا يمكن عمله وما طريقة علاجه. وكانوا قد أوصوا بعدم نقل مجدي إليهم متفقين مع أمهر أطباء مصر في المخ والأعصاب الذين أشاروا أن محاولة نقله فيها نهايته. كان الأطباء الثلاثة الأمريكيون يفحصون مجدي بالداخل ومعهم الأساتذة المصريون، الكل يتشاور، فيما ينتظرهم بالخارج نادية وحازم ومها، وقلوبهم تتضرع أن يكتب على أيديهم عودة مجدي.

مها أمسكت بكتاب الأدعية والأوردة ولم يسكن لسانها لحظة عن الدعاء. في مخيلتها ذكريات مماثلة لم يمض عليها زمن حين تعلمت كيف تدعو وتتضرع، وفي المستشفى نفسها. ذكريات بدايتها ألم، وإن كانت

نهايتها -لمها- أمل وإيمان وتغيير جذري في حياتها لم تكن تتصور مهما جمح خيالها أن يحدث لها.

في نهاية صيف مثير، بدأ اليوم الأشهر في حياة مها. عند العصر كانت مستلقية بجانب حبيبها تامر على شاطئ العجمي، مرتدية «مايوه بيكيني» وظيفته الأساسية أن يمكن السّمرة من تغطية كل مساحات جلدها المسموح بكشفها في أوساط اختلف فيها تعريف العري؛ شواطئ تفوقت على شواطئ أوروبا في تقدميتها وجمال الأجساد المتراصة فيها. موسم الصيف الجميل كان في آخره، مها لم يكن لديها ما يشغل بالها أكثر مما كانت سترتديه في حفلة الليلة والتي كانت ستلم شمل كل شباب العجمي حتى الفجر.

صيف مها كان مليئًا بالسعادة، فهي مع حبيبها تامر، الذي تخرج من كلية الهندسة وخطبها من أهلها؛ مما سمح لهما بالتمتع بأحلى إجازة في تاريخهما المديد معا، فمها وتامر معا منذ أكثر من خمس سنوات والجميع يعرفون أنهما لبعضهما ومصيرهما متزوجين. صيف جميل ورائع، فيه أحضان دافئة وقبلات ساخنة وبعض الأشياء الأخرى التي سمحوا لنفسيهما بها مع وضعهما الجديد كمخطوبين، فمها دائما كانت له، وتحس أنها ملكه، والآن بعد الخطوبة لم تجد سببا لأن توقف تامر عن فعل ما تتمناه هي ويريده هو. ما أحلى الصيف الذي قارب على نهايته. نادية كانت قد اتصلت بمها وطلبت منها أن تكون موجودة هي وتامر بالقاهرة في اليومين التاليين حتى يلقيا نظرة على تجهيزات شقتهما التي بدأت. اتفقت مع تامر

على أن يسافرا بسيارته إلى القاهرة فور انتهاء الحفلة.

الشمس والرمال والبحر هذا اليوم كانت في أحسن حالتها، والصحبة كانت كما يقول الشباب « تجنن». البيرة والفودكا والمارتيني أثرها كان مضاعفا مع الشمس الحارقة، فدارت الرؤوس واتسعت الابتسامات وكثرت المداعبات وعلا ضجيج الضحكات.

مع نزول الشمس وحلول وقت غروبها، بدأ النزوح على وعد اللقاء ليلا في الحفلة المنتظرة. عودة إلى البيوت للاستحمام والاستجمام قليلا ثم البدء في الاستعداد لسهرة تمتد إلى بزوغ شمس يوم جديد. عند البيت وفي سيارة تامر طالت قبلته لمها قبل أن يتركها تنزل وهو يؤكد عليها أن تكون جاهزة حوالي منتصف الليل، حين يمر ليأخذها إلى الحفلة.

حين دخلت مها إلى البيت كان قلبها يرقص على نغمات سعادتها وحبها لتامر. كم هي جميلة حياتها وكم هي مغدقة عليها بالسعادة. اجتهدت مها لتجد رغبة أو أمنية لها لم تتحقق. احتضنت وقبلت جدتها فريدة سريعا وهي تجري لتأخذ حمامها لتخرج منه إلى وجبة لذيذة، لابد أن تكون دادة هانم قد أعدتها لها، وبعدها تنام حتى تصحو متلألئة ومتألقة لحبيب القلب ولتجعل بريقها وسط السهرة مصدر فخره ومقويا لحبه لها.

في العاشرة مساء صحت مها وبدأت تستعد للسهرة.

أول الاستعدادات كانت أنها أخبرت جدتها أنها ستبيت عند صاحبة الحفلة ثم سترحل صباحا إلى القاهرة كما اتفقت مع أمها. إجراء بسيط

وكذبة بيضاء تضمن بها أنها ستصبح حرة مع تامر إلى أن تصل إلى القاهرة. كانا قد اتفقا أن يفطرا سويا في مينا هاوس كما اعتادا قبل أن تعود إلى البيت وسط النهار. هكذا ضمنت عدم المساءلة حتى ظهر اليوم التالي. وافقت جدتها بعدما تشاورت مع أمها على التليفون واتفقتا على أن صديقة مها معروفة لديهما هي وأهلها.

لم تأخذ وقتا طويلا في اختيار فستانها، فستان أزرق من الحرير محلى بتطريز أبيض اشترته لها نادية في آخر زيارة لها لباريس. فستان قصير دون أكمام؛ فستان بنت شقية وجميلة تلبسه لحبيبها. أغمضت عينيها وهي تتصور تامرًا مرتديا ما اتفقا عليه، قميص أزرق وبنطلون أبيض، إعلان آخر للعالم كله أنهما معا. الصندل الأبيض الذي اختارته مها كان متناسقا مع برونزية قدميها، وطلاء الأظافر الشفاف الذي زين أظافر قدميها ويديها، وهو نفس ماركة الحقيبة البيضاء التي اختارتها والتي كانت آخر إصدار للماركة العالمية التي تنتجها وتبيعها بالآلاف. عندما خرجت مها من حجرتها أشعت البهجة في عيني جدتها وبدأ لسانها يتلو المعوذتين، وما لبثت أن دعت لها أن يحفظها وجمالها من العين والحساد. في موعده دخل تامر وقبَّل فريدة الجدة، جلس معها لحظات قبل أن يأخذ أميرته وينطلق، أميرته التي تبدأ قصتها في منتصف الليل عكس سندريلا التي تنتهي قصتها في الوقت ذاته.

حين وصلا إلى الحفل التفتت الأعناق عند دخولهما، تامر بوسامته الأوروبية التي ورثها عن أمه الألمانية وبجانبه مها الجميلة في أبهى صورة.

كانت الحفلة تضم كل أصدقائهما المقربين، وكل أصدقاء ومعارف الصيف الجميل. بدا أن الزمن قد قرر أن يكون زمن سعادة وفرحة فقط دون غيرهما. كئوس الشمبانيا للبنات وجميع أنواع الكئوس للشبان كانت، تُملأ قبل أن تنتهي. الموسيقى كانت رائعة وكانت مخططة كما يقول الكتاب، رقص غربي سريع تلاه رقص شرقي تنافست فيه البنات في إبراز البراعة، ثم التقت الأجسام على موسيقى رومانسية ناعمة فغدا كل شاب وفتاة جسمًا واحدًا من شدة الالتصاق، ومع تناغم الروح والجسد زادت القبلات حرارة وقد انخفضت الإضاءة، حتى ظن الرائي أنهم ظلال وأجنحة أشباح متحابة.

تامر كان يعرف أنه سيقود سيارته إلى القاهرة فالتزم ألا يزيد عدد الكئوس التي شربها عن خمسة أوأكثر قليلا.

كان قد حضّر مفاجأة لمها، فمن خلال صديق له حجز جناح تشرشل في مينا هاوس ليرتاحا فيه عند الوصول، ثم يفطزان في شرفته حين يستيقظان، والأهم أن صديقه أخذ الجناح باسمه وأعطاه المفتاح، وبالتالي أعفاه من حرج سؤاله عن قسيمة زواج متى يصل الفندق. كان يريد ترك الحفلة سريعا حتى تطول ساعات تمتعه بمها وحدهما في جناح الفندق ولكن مها

كانت متألقة ومستمتعة، فأخرت انطلاقهما على الطريق الصحراوي حتى الرابعة صباحا.

وانطلق تامر بالسيارة على الطريق، كعادته داس على دواسة البنزين حتى آخرها، الطريق خالٍ في هذا الوقت إلا من بعض سيارات النقل التي تخطاها، فأصبح كأنه أول سيارة في سباق تخيلي. مها بجانبه يستمعان لموسيقاهما المفضلة ويداهما متشابكتان، وبين الحين والآخر تميل مها برأسها على كتفه، أويضمها تامر إلى صدره بيده فتتمتع بقربه ولا مانع من قبلة سريعة كل تارة وأخرى. أثر الكحول مازال يجعل رأسيهما خفيفتين فيشعران أنهما فوق سحابة، والسيارة في سرعتها تطوي الطريق.

مد يده تامر وأزاح فستان مها ووضع يده بين فخذيها فشعرت بدفء ونشوة اللمسة، نظرت إلى عينيه فكأنهما مرآة للرغبة التي فارت بداخلها، اقتربت منه والتقت شفتاهما في قبلة عميقة، يدها لمست موضع رجولته فشعرت بكمٍّ رغبته فيها. مازالا في قبلتهما العميقة حين أحست مها بالسيارة تدور بهما وصوت ارتطام شديد، ثم انقلاب ولفة وانقلاب آخر، لحظات حتى يومنا هذا لا تدري ما حدث فيها قبل أن تشعر بالدم الدافئ يسيل من كل أجزاء جسدها وطعم الأسفلت الساخن في فمها. عيناها تكاد تفتحان، وهي تدرك أنها لم تعد في السيارة وأن تامر ليس بجانبها، مدت يداها فلمست جسدًا دافئًا ملقى بجوارها، نادت بكل ما فيها: تامر، ولكن لم يصدر لها صوت، مازالت تناديه ولكنها تسمع نداءها بداخلها دون

صدى خارجي، عيناها أقفلت وذهبت بعيدا، ظلام حط عليها ثم سكون أحاط بها، لا ترى ولا تسمع ولا حتى تنادي بداخلها.

قطع وصول فريدة ويوسف وفهمي شريط ذكريات مها. كان الجميع قد بدأوا الوصول والتجمع لمعرفة رأي الفريق الطبي الأمريكي في حالة مجدي. فريدة بعدما سلمت على عمتها وعلى مها وكالعادة، التصقت بحازم. أمسكت بيده وربتت على كتفه وظهره. تعرف فريدة كم هو وقت عصيب لحازم، أبوه بين الحياة والموت والأطباء يهزون أكتافهم في يأس دون قدرة منهم على التدخل، بين يد الله، كما يحلو لهم أن يقولوا حين لا يستطيعون حيلة. لم تدر أيهم أشد على حازم، حال أبيه أم استعادته ليوم حادثه الذي لابد أنه يسترجع تفاصيله كلما دخل مستشفى.

كيف ليوم بدأ أسعد بداية لإنسان أن ينتهي كأتعس يوم في حياة الإنسان نفسه. ابتسمت فريدة وهي تتذكر كمّ وقدر سعادة حازم وفرحته وهويستقبلها في مطار دالاس؛ حيث يعمل ويعيش منذ تخرج في جامعته. فريدة طارت من نيويورك لتقضي إجازة نهاية الأسبوع في ضيافة حازم. عندما ركبا السيارة استفاض حازم في عرض خطته التي وضعها للعطلة، ولكن بداية سيذهبان إلى المنزل لتستريح فريدة من عناء الرحلة ثم ليلًا يذهبان إلى المطعم الفرنسي، ومن بعده يقضيان سهرتهما في أكثر نوادي دالاس الليلية حصرية. استفاض حازم وهو يحكي لفريدة كم المكالمات والواسطة التي احتاج لها كي يضمن دخولهما إلى هذا النادي. أما أكثر ما

كان يسعد حازم فهو أن فريدة كانت أخيرا ستقابل هيلاري حبيبته. كما قال لها حازم كان رأي فريدة في هيلاري يهمه، وإن كان واثقا أنها ستحبها. حازم كان قد التقى بهيلاري منذ أقل من عام وسرعان ما تطورت علاقتهما فانتقلت للعيش معه، وبدأ يخطط للزواج بها. لم يقل حازم يومها لفريدة إنه ينوي طلب الزواج من هيلاري قبل نهاية العطلة، وإنه أراد فريدة حاضرة حين يجثو على ركبتيه طالبا يد هيلاري كما في الأفلام. كانت فريدة تحس أنها تعرف هيلاري من كثرة ما حكى لها عنها حازم، كانت السعادة التي تدب في صوته حين يتكلم عن هيلاري تجعل قلب فريدة يدق وكأنها هي التي وقعت في غرامها، أحبتها قبل أن تقابلها من شغف وحب حازم لها.

عندما وصلا البيت كانت هيلاري في انتظارهما، عناقهما كان شهادة نجاح لحازم في كيف جعلهما يحبان بعضهما قبل أن يتقابلا. هيلاري كانت قد أعدت وجبة خفيفة أهم مكوناتها الزهور الجميلة التي زينت البيت كله، وخاصة الحجرة التي ستقضي فيها فريدة العطلة. ما أن انتهوا من الوجبة حتى انسحبت فريدة لتأخذ حمامها وتستريح قليلا قبل بدء برنامج الليلة المزدحم.

في الثامنة بدأ الركب يقوده حازم ومعه أهم امرأتين في حياته، حبيبة قلبه وتوأم روحه. حين وصلا إلى المطعم الفرنسي الفخيم كان الاستقبال مسايرا للتوقعات. الطعام كان لائقا بسمعة المكان وشهرة صاحبه، الحديث كان حميميا مليئا بالابتسامات والضحكات، وكذلك لمسات ونظرات حازم وهيلاري التي لا تخلو من شغف وغرام.

كل شيء وكل تفصيلة في المطعم والوجبة والجلسة كان قمة في الأناقة، حازم لم يترك شيئا للصدفة ولم يبخل في طلب، وعبرت ابتسامته عن نجاحه وهو يرى فريدة وهيلاري في حالة التناغم التي هما عليها. عندما انتهوا من المطعم توجهوا بالسيارة إلى النادي الليلي. كان الجو خريفيًّا جميلا فاستمتعوا بلسعة البرد الخفيفة وهم ينزلون من السيارة أمام النادي ويعبرون إلى بابه. كان هناك طابور من الناس المنتظرين فرصة الدخول، عبره حازم وتوجه إلى رأسه وعندما ذكر اسمه لموظف الاستقبال ابتسم وفتح له ولرفيقتيه الباب فورا ليدخلوا. المكان من الداخل كان فعلا كما توقعوا ولحظة أن دخلوا عرفوا أن اتصالات حازم كانت في محلها وأن مجهوده لم يضع. تجهيزات المكان كانت توازي سمعته كأحسن مكان للسهر في دالاس. احتلوا طاولتهم التي كانت في انتظارهم، كانت الموسيقى عالية تحرك الأجساد حتى وإن أبت أو قاومت.

بعدما طلبوا مشروباتهم ووصلت، بدأوا في التراقص حول طاولتهم قبل أن يذهبوا ثلاثتهم إلى ساحة الرقص. كم هي ليلة رائعة وكم هو قدر الاستمتاع الذي هم فيه. بعد عدة وصلات من الرقص عادوا ليلتقطوا أنفاسهم ويستمتعوا بمشروباتهم على طاولتهم. لم يكن بينهم أحاديث مطولة لعلو وزخم الموسيقى، وإن كانت لم تفارق الابتسامة شفاه أي منهم وامتلأت أعين الثلاثة بكثير من السعادة.

فجأة وجدت هيلاري يدًا على كتفها تضمها بقوة، نظرت فوجدت رجلا ضخم الجثة يحتضنها وهويقول بفظاظة :

«ماذا تفعل جميلة مثلك مع هذا الملون؟»

برغم الصخب سمع كل من حازم وفريدة ما قاله الرجل، انتفض حازم ونظر إليه وهو متمالك أعصابه :

«بعد إذنك نحن مع بعض ولا نبغي صحبة»

«ومن قال لك إنني أبغي صحبتك» قالها الأمريكي الذي بدا واضحا درجة ثمالته، «أنا أبغي صحبة هذه الجميلة، وأبغيها حتى الصباح دون انقطاع» قالها وهو يغمز بعينيه لهيلاري بوقاحة.

كان حازم قد أصبح في مواجهته، مد يده بهدوء ورفع يد الأمريكي التي تضم هيلاري. بدا الغضب على وجه الرجل، وحاول وهو يترنح أن يسدد لكمة إلى وجه حازم الذي تفاداها.

حينذاك كان رجال أمن المكان قد لاحظوا ما حدث وفي ثانية أصبحوا بين الرجلين. تعالى صوت الرجل بالتهديدات والشتائم لحازم الذي تجاهله تماما. أدرك رجال الأمن مَن المعتدي، وفي لحظات كانوا يرافقونه إلى خارج المكان بعد أن اعتذروا لحازم وهيلاري عما حدث. دقائق هدأ بعدها حازم وهيلاري وعاد الجميع إلى الاستمتاع بسهرتهم، الموسيقى ما زالت جميلة والأجواء ممتعة.

انتهت السهرة مملوءة كما بدأت بالبهجة وحان وقت العودة إلى المنزل، خرجوا من باب النادي وعبروا إلى مكان الانتظار، كان المكان يموج بالذين انتهت سهرتهم ومتوجهون إلى سياراتهم. وثلاثتهم يمشون يتضاحكون، أحس حازم بمن يربت على كتفه فنظر إلى الوراء:

«أتعرف ما عيب هذا البلد العظيم» وجد الرجل نفسه الذي شاحنه في النادي يوجه له الكلام. للحظة فكر حازم أن يرد عليه ولكنه تذكر سنواته في أمريكا، فانصرف عنه وأكمل خطواته في اتجاه السيارة وهو ممسك بيدي فريدة وهيلاري.

«عندما أحدثك يجب عليك أن تقف وتسمعني يا حقير»

سمعه حازم يناديه وإن حاول أن يكظم رغبته في الالتفاف ولكمه لينهي ثرثرته.

«مشكلة هذه البلد أن أمثالك لا يحترمون أسيادها»

نظر حازم إليه وفريدة وهيلاري يشدونه بعيدا عن الرجل تفاديا لما لا يحمد عقباه وهما تتوسلان إليه أن يتجاهله.

نظرت هيلاري إلى الرجل وهي تقول:

«مشكلة هذا البلد أمثالك من الحقراء»

«أتدافعين عنه يا عاهرة»

لم يستطع حازم كبحا لأعصابه حين سمعه يشتم هيلاري بهذه الوضاعة. كان الرجل ضخم الجثة، وبرغم قوة حازم وجسمه الرياضي لم يكن ندا للأمريكي قوي البنية. دون مقدمات أصبح حازم في الأرض والرجل قابعا فوقه. من حيث لا يدرون وجدوا الرجل ممسكا بمضرب بايسبول من الخشب، كان الظلام قد أخفاه عن أعينهم.

«لن أقتلك اليوم يا ملون، فقط سأعلمك درسا في الأدب»

بدأ في ضرب حازم بالمضرب في جميع أجزاء جسده، لف حازم يديه حول رأسه محاولا حمايتها في رد فعل طبيعي ثم لف جسمه على الأرض معطيا الرجل ظهره، والرجل مستمر في ضربه بالمضرب، حين بدا أنه انتهى من مراده، رفع المضرب مرة أخيرة وهوى بالمضرب بكل ما أوتي من قوة على ظهر حازم.

آه مكتومة هي كل ما صدر من حازم قبل أن يغشى عليه من شدة الألم، وفي اللحظة نفسها اختفى المعتدي وكأنه أبدا لم يكن.

لا تتذكر فريدة التالي من الأحداث حتى لحظة جلوسها خارج حجرة عمليات المستشفى التي نقلا حازم إليها.

بجانبها جلست هيلاري وهي في حالة انهيار؛ دموع كليهما تنهمر على خديهما وهما يتصوران الأسوأ لحازم الذي سالت دماؤه أمامهما على أرض ساحة انتظار السيارات وفي لحظات ما زالتا لا تستوعبان ما حدث أثناءها.

فريدة كانت قد أبلغت يوسف ومارجو، اللذين توجها إلى مطار نيويورك لأخذ أول طائرة لدالاس، بعد أن أبلغا نادية في القاهرة بالحادث. كانت نادية تتصل بفريدة كل خمس دقائق أو أقل، وفريدة تجيبها في كل مرة، أنه مازال في حجرة العمليات. خمس أوست ساعات والجراحة مستمرة، حتى أن نادية كانت قد ركبت طائرتها من القاهرة إلى أمريكا دون أن يكون لدى فريدة أي جديد عن حالة حازم.

لحظة خروج الطبيب من حجرة العمليات، ونظرته المنتكسة في اتجاه فريدة وهيلاري لا تفارق خيال فريدة حتى يومها هذا. هُرعتا إليه فقابلتاه في منتصف الطريق، تلعثم لحظة قبل أن يخبرهما أنهم حاولوا قصارى جهدهم كأطباء وأنهم عالجوا معظم الكسور والأضرار التي لحقت بحازم ولكن الضربة الأخيرة أردت حازم غير قادر على الوقوف على قدميه من جديد؛ أعاد عبارته الأخيرة أكثر من مرة؛ حازم أصبح مشلولا ولن يستطيع المشي بعد اليوم.

من بُعد.. شهقت فريدة والألم يعتصر قلبها على أخيها الذي لم تلده أمها فيما أصاب هيلاري صمت الذهول.

أيام وأسابيع في المستشفى مرت، وحازم يذهل الجميع بعزيمته وقدرته على التعايش مع عاهته وإعاقته. نادية تبتسم في وجهه وتذرف دموعها دون توقف كلما انفردت بنفسها. لم يمض شهران حتى كان حازم مواظبا مرة أخرى في عمله معتمدا تماما على نفسه في بلد أكرمت المعاقين بأن أعدت نفسها لهم. هيلاري لم تتوقف عن السؤال عن حازم طوال وجوده في المستشفى، وإن قلت زياراتها يوما بعد يوم واستبدلت بها مكالماتها التليفونية.

لم تلحظ نادية أن هيلاري قد نقلت حاجياتها من شقة حازم إلا حين أخبرته هيلاري بذلك. كلمات مقتضبة مفادها:

«آسفة، لا أظن أن باستطاعتي الاستمرار»

لم تنل منه هذه الكلمات وكأنه اعتاد لطم الزمان. لم يكن حانقا أو غاضبا بل ألهمه الله رضا بما أصابه.

شهور مضت ونادية بجانبه، في كل يوم تحاول إقناعه بالعودة معها إلى مصر. قلبها لم يطاوعها أن تتركه وحيدا أسير إعاقته.

«يا حازم في مصر ها تعيش مرتاح وشغلك مع أبيك موجود. إحنا طول عمرنا في انتظار رجوعك»

أخيرا استسلم حازم لرغبة نادية وعادا سويا ليستقر في القاهرة.

همس حازم في أذن فريدة:

«هل تظنين أن طاقم الأطباء الأمريكي سيأتي بجديد؟»

استغربت فريدة نبرة اليأس التي في صوت حازم. لم تعتده فاقد الأمل؛ نظرت إليه وهي تقول:

«كل شيء جائز، ربما يكتشفون شيئا يكون قد فات على من فحصوه قبلهم».

***

مها مازالت مستمرة في الدعاء وعيناها مملوءتان باللوعة على أبيها. نظرت حولها فلاحظت وجود المرأة الشابة التي رأتها كل يوم وكل ساعة منذ وصل مجدي المستشفى، فساتينها دائما مثيرة تبرز جسدها الجميل وكأنها تقصد استعراضه. تذكرت مها كيف كانت يوما مثل هذه المرأة، تعيش دنياها كل يوم حتى رمق المتعة الأخير، ثم تبدأ في اليوم التالي في الارتشاف من جديد دون توقف أو محاولة للتمهل. لم تدر لماذا ولكنها وجدت ذهنها يأخذها إلى وقت ذاقت طعم الأسفلت ودماؤها سائلة وهي تلمس جسد تامر الساكن الملقى بجانبها. أصوات مختلطة سمعتها، أصوات تترحم عليهما وأصوات تتحرك حولهما؛ أصوات تحسها قريبة وإن كانت في الوقت ذاته تشعر بأنها تأتي من بعد. لا تتذكر إلا إفاقتها على سرير في حجرة مستشفى، ونادية بجانبها ويدها على جبينها. كانت أولى كلمات نطقتها مها:

«تامر فين؟»

ربتت نادية على جبهتها ومالت عليها فقبلتها وهي تهمس: «الحمد الله على سلامتك يا مها.»

دق قلب مها وهي تشعر بنادية تتحاشى الرد على سؤالها:

«تامر فين يا ماما ؟ »

«تامر بخير يا حبيبتي. الحادثة كانت جامدة قوي. هو لسه في العناية المركزة ولكن الدكاترة طمنونا عليه»

«عايزة اروح اشوفه» ظل مطلب مها غير مجاب أياما وهي لا تكل ولا تمل من طلبه حتى سمحت لها حالتها الصحية بالحركة؛ أخذوها على كرسي متحرك وقدماها الاثنتان مُجبَّرتان، وكالعادة نظرت في المرآة قبل أن تذهب لحبيب القلب، فارتعبت من الرضوض التي بوجهها.

دخلت مها إلى حجرة العناية المركزة ونادية بجانبها حتى وصلا إلى السرير الملقى عليه تامر، بدا وكأنه جسد بلا روح؛ وقد كان كذلك. كان في غيبوبة عميقة منذ يوم الحادث. لم يكن به إصابات ظاهرة سوى بعض الرضوض في وجهه ويديه، ولكنه كان غارقا في السكون دون حراك. جزعت مها وهي تبكي وتحتضن ما استطاعت أن تطوله من جسم تامر؛ كان قلبها وعقلها يناديانه، ونادية تجذبها في حنان لتبعدها عنه. على السرير المجاور كان هناك مريض آخر في غيبوبة وبجانبه سيدة يبدو أنها زوجته. أسرعت السيدة إلى جانب نادية تهدئ من روع مها، همست في أذنها:

«ادعي ربك يا بنتي وتوكلي عليه في مصيبتك، إن الله مع الصابرين»

استخدمت مها اتصالات العائلة في تحطيم قواعد حجرات العناية المركزة فأصبحت مرابطة إلى جانب سرير تامر باستمرار. يوما بعد يوم

علمتها السيدة زوجة جار تامر في الغرفة الأدعية والأوردة التي تحتاج إليها؛ ومن الأدعية والأوردة إلى قراءة القرآن وقبل ذلك الانتظام في الصلاة. بدأت مها دون أن تشعر طريقها إلى الله وبدأت التمتع بأن تحب ربها وتتمتع بما كتبه لها وتحمده على نعمه.

اعتصر الندم قلب مها على كيف عاشت قبل الحادث، وخافت على تامر ألا ينال فرصة التوبة التي فازت هي بها، أصبح دعاؤها اليومي:

«يا رب أعط له الفرصة أن يعرف جمال الطريق إليك.»

مع كثرة الصلاة والدعاء وقراءة القرآن أصبح شعر مها دائما مغطى، برز جمال وجهها مرة أخرى بعد أن خلا من الرضوض. لم يمض وقت طويل قبل أن يصبح حجابها مقصودا وليس صدفة.

«يا رب تامر كويس، رجعه علشان يتوب إليك ويسبح بحمدك» كان هذا هو دعاؤها المستمر وهي مملوءة ثقة في أن الله سيستجيب.

طوال الفترة وهي تقرأ له القرآن أو تضع سماعات المسجل في أذنيه بالقرآن المرتل. لم تعد تحتضنه مثلما كانت تفعل من قبل قدر ما لفته بدعائها المستمر له ورعايتها التي لا تنقطع لمن بدأ الأطباء فقدان الأمل في عودته.

حتى كان اليوم، مها كانت قد شرعت لتوها في قراءة سورة الرحمن، كانت تمرر يدها على جبهته وهي ترتل القرآن، أحست بعينيه تتحركان،

نظرت إليه غير مصدقة فرأته وعيناه مفتوحتان، وبابتسامة شديدة الضعف كادت تقسم أنها سمعته يقول:

«إزيك يا مها»

لم تدر بنفسها إلا وهي ساجدة على الأرض تبتهل لربها شكرا. معجزة كما قال الأطباء بعد ذلك، ولكن مها كانت واثقة في قدرة ربها وقبوله لها ولتوبتها.

بعد أن أفاق تامر من الغيبوبة لم يلبث كثيرا في المستشفى فاستعاد عافيته سريعا. استعجب حجاب مها في البداية، ولكنها ما لبثت أن حكت له رحلتها إلى طريق الهداية وكيف عرفت الله. طلبت منه أن يكون حمده وشكره لربه أن أعاده إليها وأعاده للحياة «توبة نصوح». استجاب تامر وقد استشعر أن الله أراد أن يستعيده من درب الشقاء الذي كان يسلكه، وأن ما حدث لهما كان لطمة خفيفة للإفاقة. بدأ تامر رحلة إيمانه فاستعذب الصلاة وعشق الصيام. تامر كان في كل ما يقدم عليه يبتغي تفوقا يصل إلى حد التطرف. دماؤه الألمانية كانت تدفعه دائما إلى بلوغ الكمال في كل ما يفعله. لم يمض كثيرا حتى أطلق لحيته وقصر بنطاله وأقنع مها أن حجابها لا يكفي وأن النقاب هو صحيح الدين وفي أثناء تلك الرحلة كانا قد تزوجا.

نظرت مها مرة أخرى نحو المرأة المثيرة، لعلها تستطيع أن تكون سبب هدايتها كما كانت السيدة المرافقة للمريض المجاور لتامر سبب هداية مها. أسكتت مها الفكرة التي في رأسها وقررت أنها بإذن الله ستتحدث

معها حين تسنح الفرصة ولكن ليس الآن، فها هُم طاقم الأطباء الأمريكيين قد خرجوا من عند مجدي متجهين نحوهم.

وقف الجميع والتفوا حول الأطباء، لا تدري لماذا ولكن مها لاحظت أن المرأة إياها اقتربت منهم وكأنها تتلصص السمع لما سيقوله الأطباء.

نظر كبيرهم للملتفين حوله وتحشرج صوته وهو يقول:

«للأسف الجلطة في جذع مخه، لا أمل في عودته يوما من غيبوبته. دعوني أكون قاسيا ولا أُذوِّق كلامي، هو ميت حي وإلى أمد غير معلوم حتى يتوقف قلبه يوما.. لا توجد حتى معجزة تعيده، إنه في حالة ميئوس منها ولا أمل في أي تحسن. أنا آسف أعرف مدى خسارتكم ولكن واجبي يحتم عليَّ أن أصارحكم بحقيقة الأمر».

يوسف أخذ نادية بين ذراعيه وفريدة احتضنت مها بيد وأمسكت يد حازم بالأخرى، دموع فهمي سالت على خديه. لم يلحظ أيهم أن خلفهم كانت السيدة الفاتنة تبكي هي الأخرى.

***

◆

الفصل الرابع

بقاء الحال

الساعة السابعة والنصف صباحا:

على مدار ثلاثين عاما لم يتأخر عمر دقيقة في الوصول إلى مقر عمله عن هذا الميعاد. غدت هذه ساعة تحوله من رجل متمتع بحياته ويعيشها طولًا وعرضًا إلى الصارم والجاد المقبل على عمله. حتى لو لم تنته ليلته إلا في السابعة صباحا استطاع أن يكون على مكتبه في السابعة والنصف. وكأن نساءه ولهوه وخمره يختفون مع دقات هذا الميعاد، يتحول بعده إلى الوقور الحازم الذي هو في شركات العائلة، المسئول الأول عن الماليات والشئون الإدارية، يتبعه جيش جرار من المحاسبين والإداريين يحكمهم بقبضة لا تلين، وفي الوقت نفسه يغدق عليهم حين يتميزون، ولاؤهم المطلق له وهم رهن إشارته في تنفيذ أي تعليمات يصدرها.

حين دخل كلية التجارة كان يوم حزن لأهله وقد تخرج فهمي ويوسف من الهندسة والتحقت نادية بكلية سياسة واقتصاد، وخيب عمر آمالهم حين لم يستطع أن يحصل على مجموع كلية ذات مستقبل، كما كان يقال. ولكن ها هو قد صنع من نفسه شيئًا وأصبح ذا سطوة وقدرة برغم تشاؤم الأهل. منذ بدأ مع فهمي مشوار بناء امبراطوريتهم، منذ كان محاسبا أوحد حتى

أصبح اليوم يتبعه أكثر من مائة محاسب ومثلهم أوأكثر من الإداريين. ذكاء عمر جعله يعرف كيف يكبر في مكانه وكيف يكبر بالمكان ويزيد أهميته.

ترك الفنيات والتقنيات لفهمي والآخرين واكتفى بأن يكون صمام الأمان. كان يعرف أين الأموال ومواضع الاستثمار أكثر من فهمي نفسه، وكان هو من يخرج الرشاوى والإكراميات حين يحتاجها العمل فزادت سطوته وأهميته. ومع هذا لم يشعر أحد خصوصًا فهمي بهذه السطوة، بل كان يشعره دائما بأنه ظهره وخط الدفاع عنه ومصدر أمنه وأمانه. ولاؤه لفهمي بحكم الدم اتسق مع إعجابه بقدرات فهمي وإبداعاته وأدى إلى مباركة عمر الدائمة لخطواته وإسهابه في إطرائه مع كل نجاح. عبر السنين جدد فهمي واستبدل من حوله ما عدا عمر الذي كان كاتم سره وحامي الثروة. حتى عندما عاد شريف من دراسته وانضم للمنظومة وبدأ إدخال الدم الجديد في الشركة، اكتفى شريف بتغيير الدم في كل الإدارات ماعدا إدارات عمر.

ولعل مما ساعد في ذلك أن عمر كان مطلعا على كل جديد في مجاله فكانت إدارته على مستوى أقوى الإدارات في الشركات العالمية، حاسبات آلية بأحدث البرمجيات وتقارير تصدر مع ضغطة الزر.

في إداراته لم يسمح عمر لأحد أن يسطع أو يصبح نجمًا، كان يحب المجتهدين لا المتفوقين. بهدوء وبأسلوب مخطط تخلص عبر السنين من كل من بدا أنه سيتألق يوما، تخلص دون ظلم، فلم يتمسك بمن جاءه منهم،

عرض حين كان يمكنه إغراؤه بالاستمرار، ونقل من بقي منهم إلى وظائف دون بريق حتى يجعل طموح هذا الشخص مُحرِّكَهُ إلى خارج الشركة وإن اختار البقاء بعد ذلك يكون فاقد الطموح.

من خلال إعداد تابعيه وانتشارهم وتعاملهم مع الإدارات المختلفة كان لديه أخبار كل صغيرة وكبيرة في الشركات. كان يعرف من خلال تقارير الكفاءة تفاصيل كل العاملين وكان بقدرته على الاستنباط وقراءة الشخصيات يصل إلى ما يفكر فيه الجميع وأين ذاهبة بهم أحلامهم، بل ساعد على كشف الخيانات التي قد تحدث في الشركات التي بمثل حجمهم حتى قبل أن تحدث وهي لا تزال في مرحلة التخطيط. وبما أنه المتحكم في الماليات فقد أصبح مصدر العطاء لمن يحتاج والمنصف لمن تعرض لظلم أوشبهته.

***

«فهمي بك وصل»

كانت الرسالة اليومية التي تحملها مكالمة سكرتيرة فهمي إلى عمر.

فهمي كان يدرك أن يومه سيكون مشحونا ومليئا بالأحداث. حين دخل مقر الشركة انقبض قلبه واغرورقت عيناه وهو يحس بوحشة أنه لن يبدأ يومه بفنجان قهوته مع مجدي. الوحشة لم توقف عقله عن التفكير في أمور كثيرة لابد أن يتعامل معها مع وضع مجدي الجديد الذي فرض نفسه.

«اطلبي لي الدكتور عبد الرحمن صادق»

كانت هذه أول مكالمة يطلبها فهمي من سكرتيرته. ثوان وكان معه على الخط صوت الطبيب نصف النائم.

الدكتور: صباح الخير يا فهمي بك.

فهمي: صباح الخير يا دكتور، هل وصلتك نتائج تحاليلي.

الدكتور: نعم وصلتني أمس مساءً ولم أرِد إزعاجك.

فهمي: إزعاجي، ليه؟ فيه حاجة؟

الدكتور: يعني أنا مش مبسوط قوي بالنتائج. القلب ضعيف شوية ومستمر في الضعف يا فهمي بك.

فهمي: ضعيف يعني إيه؟ والحقنة السنوية اللي تمنها نصف مليون دولار، إيه؟ أليس لها أثر؟

الدكتور: الحقنة يا فهمي بك علشان تنشيط وظائف الجسم عامة وليس القلب بصفة خاصة.

فهمي: طيب وإيه المطلوب؟ إيه العلاج؟

الدكتور: العلاج مجموعة أدوية تحافظ على وضع القلب على ما هو عليه وتجعل الحالة مستقرة. ولكن الأدوية وحدها ليست كافية، لابد من الراحة وتقليل الجهد، يعني لازم نغير إيقاعنا بعض الشيء.

فهمي: أغير إيه وإزاي يا دكتور، هو أنا باعمل حاجة غير شغلي؟

الدكتور: ما هو يا فهمي بك الشغل ضغط عقلي وعصبي يؤثر على جسدك وبالذات المضخة التي تدَور هذا الجسم، قلبك يعني. المطلوب أن تقلل من الضغوط عليك وعليه. لن أقول أن تتوقف عن العمل ولكن يجب أن تقلل من ساعات العمل ويجب أن يكون نمط حياتك أقل إرهاقا من الناحية الذهنية والعصبية.

فهمي: اسمع يا دكتور اكتب الأدوية التي تريدها وابعثها لي. وهذا الموضوع بيني وبينك فقط. أعني لا آمال ولا شريف ولا مخلوق يعرفون بالحالة. إذا سألوك قل لهم أن كله تمام. ولا تنس أن ترسل أحدًا لعمر ليأخذ شيك التبرع الخاص بمستشفاك الجديد.

الدكتور: حاضر يا فهمي بك. شكرا على كرمك. تحت أمرك يا فندم.

استحوذ ما قاله الطبيب على عقل فهمي لمدة ثوان قبل أن ينشغل بالتالي في جدوله المزدحم.

كان ميعاد محامي المجموعة قد حان ولم يلبث أن كان جالسا أمامه.

فهمي: يا أستاذ محمود انت عارف طبعا بحالة مجدي.

محمود: عارف يا فهمي بك وقلبي معك.

فهمي: طيب، انت تعرف أن معي توكيلا من مجدي.

محمود: أعرف يا فندم وهوسارٍ.

فهمي: عظيم لأني أريد أن أنقل أسهمه.

سكت المحامي قليلا قبل أن يرد:

ممكن طبعا ولكن تواريخ نقل الأسهم وهو في حالته هذه قد تكون مصدرًا للطعن.

فهمي: طعن ؟ من سيطعن؟

محمود: أي شخص قد يلحقه ضرر من نقل الأسهم.

فهمي: من تقصد؟! أنا سوف أنقل الأسهم إلى نادية أختي وحازم ومها ابنه وابنته، أتظننِي أريد أن أستولي على الأسهم لنفسي؟

قالها فهمي بغضب، جعل المحامي الكبير يرتعش وهو يلعن نفسه الظنانة.

محمود: العفو يا فهمي بك لم أقصد. في هذه الحالة لا أظن أنه ستكون هناك مشكلة. طالما أن حضرتك متأكد أنه ليس هناك آخرون سيكون لهم حقوق على الأسهم.

فهمي: لن يوجد، سأتولى بنفسي أي أحد آخر. ابدأ الإجراءات وأنهها على أسرع وجه. كم ستحتاج من وقت؟

محمود: بعد غد تكون انتقلت الأسهم. سأنقلها بالنسبة الشرعية للزوجة والابن والابنة.

فهمي: مضبوط، ويا ليت تستطيع الانتهاء غدا وليس بعد غد.

محمود: سأحاول وسأتصل بسيادتك حين يحين موعد التوقيع.

سكت فهمي برهة قبل أن يفاجئ المحامي بطلبه التالي. ارتسمت الدهشة على وجه المحامي وهو يعد فهمي بإنهاء الطلب في الوقت نفسه الذي سينهي فيه نقل أسهم مجدي إلى نادية وأولادها.كان المحامي غير مصدق لطلب فهمي. معقولة أن يكون هذا هو الرجل الذي يعرفه منذ أكثر من ثلاثين عاما.ابتسم المحامي وهو يسترجع تعليمات فهمي الأخيرة: انقل نصف أسهمي بنسبة الثلث والثلثين إلى هبة وشريف.

ما أن غادر المحامي مكتبه حتى اتصل فهمي بعمر، وطلب منه أن يحضر يوسف ويأتيا للاجتماع في خلال ساعة.

سند ظهره إلى كرسيه ونظر أمامه آخذًا نفسًا عميقًا؛ هو يوم طويل بالتأكيد، المهم أن يمر على خير.

حين دخل عمر ويوسف على فهمي غرفة مكتبه ساد الوجوم المكان برهة وكأنهم في حداد على غياب الفارس الرابع. لم يسمح فهمي للحزن أن يسيطر على الاجتماع الذي دعا إليه فقطع الصمت بسؤال يوسف:

– ما أخبار شغلنا في أمريكا يا يوسف ؟

يوسف: كله تمام يا فهمي، أظن التقارير تصلك أولًا بأول. هذا العام صعب وثقيل ولكن الحمد لله كنا مستعدين له ولذلك فوضعنا ممتاز مقارنة بحال الاقتصاد بصفة عامة وكذلك مقارنة بالشركات الأخرى.

فهمي: عظيم، أنا جمعتكم اليوم كي نتحدث في موضوع مجدي وماذا سنفعل بعد أن فقدناه.

صدمت كلمة فقدناه يوسف وعمر ولكنها طبيعة فهمي العملية التي ترفض إلا أن تسمي الشيء باسمه.

يوسف: سنفتقد مجدي دون شك ولكن الشركات والمؤسسات لا تتمحور حول أشخاص، وحجمنا لا يجب أن يكون مرتبطا بالشخص، فالكيان أكبر من أي شخص.

فهمي: هذه نظريات يا يوسف. الأشخاص هي التي تصنع الكيانات وهي التي تسمو بها وتقودها.

يوسف: ولكن في مرحلة معينة حين تصبح الكيانات قوية، والإدارة بها علمية يصبح الاعتماد على الأشخاص أقل. طبعا سنفتقد مجدي وسيصعب تعويضه ولكننا لن نتوقف.

فهمي: موافق يا يوسف، المهم من البديل ؟

عمر: في من تفكر يا فهمي ؟

فهمي: أفكر أن يحل شريف محله. وهي فرصة كي نعده لقيادة الشركات من بعدي.

يوسف: شريف اختيار جيد يا فهمي ولكن ماذا عن حازم، هو الآخر ممتاز ومتميز.

فهمي: حازم؟ ولكنه به ما به يا يوسف.

يوسف: ما به شيء جسدي يا فهمي ولم يؤثر ولن يؤثر من قريب أو بعيد على قدراته وتفوقه.

فهمي: أعرف يا يوسف ولكنها بالتأكيد تعوقه.

يوسف: نحن الذين نعيقه بتفكير مثل هذا يا فهمي. ناس في حالته وأسوأ يتبوأون أعلى المراكز في الدول المتقدمة. روزفلت حكم أمريكا وهو على كرسي متحرك.

عمر: دعنا لا ندخل في حوار لا نهاية له يا يوسف. شريف وحازم الاثنان مرشحان ممتازان، السؤال من منهما أقدر في المرحلة الحالية ويعد للمرحلة التالية؟

فهمي: بالضبط هذا هو السؤال وهذا ما يجب أن نبني قرارنا عليه.

يوسف: دعنا نتفق أنك أخذت القرار يا فهمي وأنك تخبرنا به حتى نشعر أننا جزء من اتخاذه. اسمع يا فهمي أنا عندي توجه وأفكار أخرى والفرصة الآن جيدة كي أعرضها ما دمنا نحن مجتمعين.

فهمي: اتفضل يا يوسف، قل ما تريد حتى لا تصفني بالديكتاتورية.

يوسف: قبل ما حدث لمجدي والآن بصفة أقوى وأكثر إلحاحًا أظن أنه قد حان الوقت أن نرتاح ونترك الجيل الجديد الذي يلينا يقود.

فهمي: الجيل الذي يلينا؟ يقود؟ لماذا يا يوسف؟ هل ترانا وقد شخنا وأصبحنا لا نصلح؟

يوسف: طبعا، شخنا وكبرنا. أما لا نصلح فنصلح ولكن نصلح لأشياء أخرى. نحن في سن نحتاج فيه إلى الراحة؛ ولم لا ونحن نملك ما نملك فنستطيع الراحة دون قلق أوخوف.

نحن لا نحتاج حتى أن نقلق على أحفاد أولادنا وأولادهم.

فهمي: يعني نترك كل شيء ونجلس في بيوتنا.

يوسف: يا فهمي خذ الوقت لتتمتع بما عملته عبر السنين، متع نفسك وعش حياتك. أنا لا أقول إننا سنتوقف عن العمل، ولكننا سنهدئ اللعب قليلًا، سنكون مستشارين لأولادنا وسيكون جزء من تمتعنا أن نراهم ينجحون أمام أعيننا.

عمر: أنا شخصيا لا أنوي أن أكون مسئولا سابقا، حين يكتب النعي الخاص بي في الأهرام أريد أن يكتب به منصبي الحالي.

يوسف: لمصلحة العمل يجب أن يقود الشباب الشركات. وبالمناسبة هم لم يصبحوا شبابا، هم على مشارف الأربعينيات. من في سنهم يحكمون بلادًا.

فهمي: هذا الكلام عندكم في أمريكا يا يوسف.

يوسف: هذا الكلام ثابت بالعلم يا فهمي. اسمعوا يا جماعة بغض النظر عما ستقررون أنا جئت في هذه الزيارة لأخبركم أني سأتقاعد وسأعود لمصر لأقيم هنا. أنا قررت أرتاح وأتمتع بما تبقى من حياتي.

فهمي: ومثل هذا القرار تأخذه دون استشارتنا؟!

يوسف: أكيد يا فهمي هو قراري وحدي. أنا محتاج أقضي أكثر وقت ممكن مع مارجو، وأريد كل وقتي مكرسًا لها. أعني أنتم محتاجون بديلا لي وبديلا لمجدي.

فهمي: وطبعا فريدة هي البديل الذي تقترحه لنا.

يوسف: صدقني يا فهمي أن فريدة لم تخطر لي على بال كبديل. سنوات أمريكا أزالت من ذهني عادة التوريث التي تدمنونها. لا يا فهمي، هناك نائبي الأمريكي الشاب يمكنه أن يحل محلي ما لم يكن لديكم بديل آخر. الحقيقة أن اختيار بديلي ليس قراري، أقصى ما يحق لي هو أن أرشح أحدا ولكن لا يمكنني فرضه.

فهمي: أنت عقّدت المسألة بقرارك هذا يا يوسف. سنحتاج إلى بعض الوقت للتفكير في ضوء غيابك أنت ومجدي.

يوسف: اسمع يا فهمي، وأنت يا عمر رغم أنك مازلت صغيرًا نسبيًّا، نصيحتي لكما أن تفكرا في أن ترتاحا وأن تتمتعا بحياتكما وبما أعطاه الله لكما من وسع. بالذات أنت يا فهمي، حين يحين يومك بعد عمر طويل ستدفن مثل أفقر خلق الله ولن تميزك أموالك ولن تأخذ معك منها شيئًا.

فهمي: يا ساتر، ما هذه الكآبة التي تتكلم عنها.

يوسف: يا أخي اتعظ من الرجل الذي سقطت رأسه على صدرك منذ أسبوع. أين هو الآن؟ هل تمتع بحياته حين كان يمكنه؟ هل عمل كل ما كان يمكنه لإرضاء ربه.

عمر: يوسف كفى مواعظ! نحن لن نناقش قرارك ولكننا أيضًا أحرار في قراراتنا. هل تريد أن تحل فريدة مكانك؟

يوسف: يمكنكم سؤالها، ولكنها ناجحة في عملها ولا أظنها تريد تركه والانضمام للمجموعة. هذه مناقشة تخصها ويمكنكم العرض عليها إذا ما رأيتم أنها تصلح لأغراضكم وأهدافكم.

انتهى الكلام وخرج يوسف وعمر من مكتب فهمي وكل من الثلاثة فكره منشغل بما سمعه وبالتوجهات والفراغات الناتجة عن غياب مجدي ولحاق يوسف به في الفترة التالية.

***

أول من بلغته الأخبار كان شريف حين كلمه فهمي ليخبره بقرار يوسف في التقاعد. لم يلتزم شريف بما طلبه فهمي منه ألا يخبر أحدًا حين اتصل بأمه وأخبرها.

آمال: اسمع يا شريف احسب حساباتك جيدًا وفكر في خطواتك.

شريف: أي خطوات يا أمي، «بابا» هو الآمر الناهي وهو المتحكم وهو الذي سيحرك الأمور.

آمال: فكر في هدوء، أتعلم يا شريف انت متتلمذ على يد أستاذ في التخطيط والدهاء، أبيك يا شريف. حين تفكر استعد واسترجع كل ما علمك إياه.

شريف: أخطط؟ لم أخطط؟

آمال: لما تريد وتأمل. اسمع يا شريف هناك فراغ سيحدث وسيكون هناك فرصة للتحرك والأخذ بما هو أكثر من المعروض. فكر بعقلك لا بقلبك. أبوك حين بدأ كانت بدايته بعقله، أسكت صوت قلبه وحسب حسبته. هذا لا يعني أنه كان بلا قلب بدليل أن كل من يهمونه ويحبهم حوله اليوم يشكرون له ما اشتكوا منه في البداية.

شريف: حاضر يا أمي. سأفكر وسأرى كيف أنتهز وأستفيد بالفرصة حتى آخرها.

كلمات آمال أيقظت ما طالما أخفاه شريف في طيات عقله. لقد طال الانتظار وغدا مملا انتظاره ليتبوأ ما هو جدير به في الشركة والحياة: الرجل الأول. جاء ميعاده ليتخلص من سطوة أبيه وليكسب الاحترام الذي يستحقه. لا ينكر فخر فهمي به ولكنه فخر المقتني لتحفة ثمينة. افتخار به وبشهادته وقدراته أمام العالم الخارجي فقط، ولكن حين تغلق الأبواب ويصبحان دون صحبة يتلاشى الفخر ويعود ولدا صغيرا ما زال في طور التربية. كل أفكاره مدعاة للسخرية وكل محاولة غير ذات جدوى مادامت هي على غير ما اختار أبوه. أعطاه مسئوليات وسلطات صورية لا تغني ولا تشبع. إلى متى سيظل غير قادر ومحبطًا؟ سأجعلك تفخر بي حقا يا أبي، سأريك أن الولد الصغير قد شب.

***

فهمي جلس يقلب في بعض الأوراق وهوفي انتظار موعده الأخير. لم يكن الموعد يقلقه بقدر ما كان ثقيلًا على قلبه.

لم يطل انتظار فهمي، فقد قاطع تفكيره دقة تليفونه والسكرتيرة تخبره:

مدام نهلة سالم ومعها الأستاذ أحمد عبد التواب المحامي في انتظارك.

فهمي: خليهم يتفضلوا.

دخلت نهلة ووراءها محام واضح من ملامحه وملبسه أنه متواضع الحال وإن أوحت نظراته وأكدت أنه شخص سُفلي.

نهلة: أنا آخذة على خاطري منك يا فهمي بك. ولا مرة تسلم علي في المستشفى.

فهمي: وانا مطلوب مني أسلم عليك بأي صفة يا نهلة.

نهلة: بصفتي زوجة مجدي يا فهمي بك، ما لم تكن نسيت أن السهرة ليلة ما حدث له كنت عندي في البيت ومعك سلمى زوجتك ما لم يكن لها صفة أخرى.

فهمي: زوجة مجدي هي نادية أختي يا نهلة. انت كنت التسلية التي أرادها مجدي شرعية فكتب لك ورقة عرفية لا تسمن ولا تغني من جوع.

أحمد: لأ يا فندم، الزواج نافذ وإثباته بسيط بشهادة الشهود.

فهمي: ومن طلب منك تتكلم، أنا أتكلم مع نهلة وإن نطقت مرة أخرى ستخرج من الغرفة؛ مفهوم؟

نهلة: إذا كانت البداية في الكلام أنك لا ترى لي حقًّا فلننهِ الكلام عند هذا الحد وكل واحد يأخذ حقه بالطريقة التي يراها.

فهمي: يا نهلة أنا لا أتهدد. وليكن في علمك أنك لن تستطيعي مجاراتي والأفضل لك أن تسمعي وتقبلي ما سأعرضه عليك.

نهلة: وأنا لا أهدد لا سمح الله، ولكن العائلة الكريمة لن تتحمل الفضائح والقضايا التي ستصبح حديث الجرائد.

فهمي: مرة أخرى اعقلي واسمعي ما سأقول. ولو أنت مصرة على خوض مواجهة معي فاعلمي أنني لن أرحمك وإن كل جنيه ستنفقينه سأنفق أمامه ألفا، وعشرة الآف وستنتهين إلى لا شيء.

نهلة: اتفضل يا فهمي بك، اعرض.

فهمي: الفيلا التي أنتِ فيها سنكتبها باسمك، وسأضع في حسابك في البنك مليون جنيه مقابل ورقة العرفي. وطبعا ستحتفظين بكل المجوهرات التي اشتراها لك مجدي.

نهلة: مليون جنيه؟ وباقي الثروة يا فهمي بك، حسبة الجاهل ستعطيني ما لا يقل عن عشرين مليون جنيه من الميراث. ما هذا البخل يا فهمي بك، صدمة نادية هانم وحازم ومها في مجدي وفضائحه تساوي عندك مليون جنيه فقط.

فهمي: اسمعي يا بنت انتي انا قلت اللي عندي. إذا كان عرضي غير مرض لك فخذي محاميك الجربان هذا وافعلي ما تستطيعين. مجدي حسابه عند ربه، وزوجته وأولاده لن يموتوا إذا عرفوا أنه تزوج سرًّا.

نهلة: فهمي بك، الڤيلا ومليون دولار، سنغير العملة يعني فقط. هذا هو عرضي. وعندك يومان تفكر خلالهما. أنا متأكدة أنك ستقتنع. قل له ما تريد يا أستاذ أحمد قبل أن نذهب.

أحمد: نقطة واحدة يا فهمي بك ألفت نظرك إليها، معنا تقرير مؤرخ ومثبت التاريخ في الشهر العقاري بحالة مجدي بك، أي تصرفات بعد هذا التاريخ ستكون باطلة وستعقد الأمور.

لم يستطع فهمي النطق وهو يراهم يغادرون وإن خيل له أنه سمع نهلة تقول قبل أن تخرج من باب المكتب:

سلم لي على آمال هانم..... وسلمى.... هانم أيضا.

رنت كلمات نهلة في أذنيه ولفه الضعف أمام تهديد محاميها العفن، لم يستطع أن تكون له الكلمة الأخيرة، لعلها المرة الوحيدة في حياته التي لم تنفذ كلمته ولم يحقق مراده في تفاوض.

اليوم كان ثقيلًا كما توقع، ولكنه أحس أنه فقد قدرته على التحكم في الأمور. لم يصل إلى النتائج التي وضعها أهدافًا له حينَ بدأ يومه. على غير العادة طلب من سكرتيرته أن تطلب من سائقه أن يحضر السيارة. سيغادر فهمي مكتبه قبل ميعاده في هذا اليوم.

في المستشفى كانت نادية ومها يجلسان بجانب مجدي، الميت الحي. مها تقرأ آيات القرآن والأدعية، ونادية تسترجع شريط ذكريات رحلة حياتها معه.

كلما نظرت إليه حاولت استرجاع ذكرى جميلة أو رومانسية جمعتهما، وإن صعب ذلك لقلتها، لم يكن حب مجدي ونادية حب ولهٍ وغرام بقدر ما كان حب عشرة وتعوُّد. لم يكن ذلك لأن أحدهما سيئ أو أساء بقدر ما كان أن أحدهما دائما متغيب عن جزء من الرحلة التي كان من المفروض أن يمضوها سويًّا.

كان زواجهما مؤدبا وشديد البرودة، وإن كانت نادية شاكرة وحامدة لنتاجه: حازم ومها.

انتبهتا من سكونهما حين أعلنتهما ممرضة العناية المركزة أن هناك زائرة بالخارج تريد الدخول لزيارة مجدي، وأن على إحداهن الخروج لتدخل الزائرة. سألا الممرضة عمن تكون الزائرة فردت:

مدام نهلة سالم

نظرا لبعضهما في استغراب للاسم. قررت نادية أن تخرج لتعرف من تكون الزائرة.

خرجت مها معها ليجدا السيدة التي كانت دومًا متواجدة منذ دخول مجدي المستشفى واقفة وأنوثتها كالعادة متفجرة وخارجة من ملابسها.

نادية: أهلا يا فندم، تحت أمرك.

نهلة: أهلا بك يا نادية هانم. قلبي معك، مصيبة ونزلت علينا.

نادية: من تكونين حضرتك، وأي مصيبة تتحدثين عنها.

نهلة: مصيبة ما حدث لمجدي يا هانم.

نادية: وكيف تخصك هذه المصيبة؟

نهلة: تخصني كما تخصك يا نادية، ألسنا زوجتيه نحن الاثنتين.

نادية: أفندم !

نهلة: هو فهمي بك لم يخبرك أني زوجة مجدي.

سكتت نادية عن الكلام، نظرت نحو مها في ذهول فلم تر من خلال نقاب ابنتها سوى الدموع. لفت نادية ودخلت إلى غرفة العناية المركزة، أخذت حقيبتها وخرجت دون أن تنظر وراءها إلى باب المستشفى ومنها إلى السيارة.لم تجب السائق حين سألها إلى أين يتوجه.

الفصل الخامس

رسائل بين قلوب

بالكاد كانت ملك قد بدأت محاضرتها لطلبتها في الجامعة الأمريكية حين لاحظت وصول رسالة إلى محمولها، لم تطق صبرًا ففتحتها :

« وحشتيني، أَنْهِ محاضرتك سريعًا.. بانتظارك »

كانت من ياسمين ولم تنجح ملك في مداراة ابتسامتها وقلبها يخفق سعادة.

الدكتورة ملك أحمدين أستاذ علم الاجتماع بالجامعة الأمريكية خريجة الجامعة الأمريكية والحاصلة على درجة الدكتوراه من جامعة أكسفورد بإنجلترا بعدما حصلت على الماجستير من جامعة كولومبيا بأمريكا.كانت محاضراتها محل إقبال الطلبة لأساليبها المتطورة في التدريس وثقافتها الواسعة وشجاعتها التي لا حد لها في طرق مواضيع كان غيرها من الأساتذة يعتبرونها غير لائقة.

ما زالت الابتسامة على وجهها وهي مستمرة في محاضرتها، كم مضى من الوقت وياسمين وملك صديقتان.كانتا معًا في المدرسة من أول يوم ومنذ هذا اليوم الأول وهما صديقتان لا تفترقان.

لم تفرقهن الأيام واستمرتا شديدتي الالتصاق طوال سنوات المدرسة حتى تخرجتا والتحقتا معًا بالجامعة الأمريكية. ياسمين دائمًا محط

الأنظار وموضع إعجاب الجميع بجمالها الرائع والملفت وشخصيتها العذبة، بجانبها دائمًا ملك وإن كانت أقل جمالًا خارجيًّا ولكنها ذات حضور مذهل وشخصية جذابة جدًّا لذا فقد أصبحتا من طالبات الجامعة المعروفات والأكثر شهرة.

ياسمين كانت مغرمة بكريم منذ أواخر سنوات المدرسة واستمرت العلاقة حين دخلا الجامعة برغم سفر كريم لاستكمال دراسته بالخارج، ملك لم تكن ذات كينونة في موضوع العلاقات العاطفية، فكانت بلا سوابق ولا بوادر مستقبلية.

ملك لا تستطيع مقاومة ضحكة خفيفة كلما تذكرت اليوم اياه.. كانت ياسمين تقضي ليلتها عند ملك، وهما مستلقيتان على سرير ملك في انتظار مكالمة كريم الأسبوعية قبل أن يخلدا إلى النوم، لم يطل انتظارهما فجاءت المكالمة سريعًا حاملة صوت كريم.كان صوته بعيدًا وفاترًا تمامًا مثلما كانت ياسمين تصفه لملك طيلة الأسابيع السابقة.هذه المرة أجاب كريم حين سألته عما به، إجابة كانت قاسية دون مقدمات أومبررات: لقد قابل من غوت قلبه في غربته وهولا يريد أن يغش ياسمين، وفي الوقت نفسه، لا يريد أن يكون أنانيًّا فيعطلها عن متابعة حياتها؛ كريم بدا وكأنه يضحي وهويكسر قلب ياسمين.لم ترد عليه ياسمين بل أنهت المكالمة في هدوء دون تعليق وإن بللت الدموع وجهها.حين وضعت السماعة نظرت إلى ملك نظرة كلها ألم، لم تنبس بعدها بكلمة بل استمرت في بكائها الصامت الذي يقطعه أنين كل حين وحين وهي مستلقية على السرير بجانب ملك. لم تكن ملك تدري كيف تتصرف في هذا الموقف فصديقة عمرها ورفيقة

روحها مجروحة وتتألم وهي بجانبها عاجزة عن رد الألم أوحتى تقليله. مدت يدها وربتت على ظهر ياسمين، وكأن حب وحنان ملك تدفق وسرى في جسد ياسمين مع كل ربتة من يد ملك، بدأ الهدوء يحل محل الشجن وبدأت ياسمين تقترب من ملك وكأنها تطلب منها أن تضمها لتطمئنها وتهدئ من روعها. ملك لفت ذراعيها حول ياسمين وضمتها إليها، أحست بها تهدأ وشعرت بالفراشة الجميلة وهي تسكن إليها وإلى لمساتها. ضمتها بذراع وبيدها الأخرى بدأت تمشط شعرها مارة بأصابعها بين خصلات شعر ياسمين الذي طالما كان إحدى علامات جمالها. مازالت ملك تحس باستجابة ياسمين لكل ما تفعله، والأغرب أن ملك نفسها بدأت تحس بأحاسيس لم تدر من أين جاءت بل لم تكن تعرف أصلًا أنها موجودة أو من الممكن أن تكون موجودة. لفت ياسمين جسدها وألقت برأسها على صدر ملك، ويد ملك تضمها إليها وتربت عليها في حنان. شعور جميل بالأمان وشعور أجمل بأنهما حيث يجب أن يكونا. استمر الوضع الذي هما فيه فطال الحضن وطال. بعد برهة نظرت ملك إلى ياسمين، ولم تدر بنفسها وإلا هي تطبع على جبينها قبلة مملوءة بالمعاني. نظرت ياسمين إلى أعلى فالتقت عيناهما، حين تعانقت النظرات بدا تطورًا طبيعيًّا لشفاههما أن تلتقيا. لقاء كان بداية لأن تكتشف كل منهما ما لم تعرفه عن نفسها.لم تكن بينهما من أغوت الأخرى في هذه الليلة، بل إن الاثنتين قد أخرجتا وكشفتا عن جانب لم تكن أيهما تعرف بوجوده،بل كانتا لا تتخيلان مهما شردتا أنهما من الممكن يومًا أن يطرقا لهذا الجانب بابًا. ولكن حالة الحب والسعادة والنشوة التي سرت في عروقيهما جعلتهما يغترفان من بعضهما طوال تلك الليلة وطوال ليالٍ وأيام كثيرة تلت هذه الليلة. استمرت العلاقة

أيام الجامعة، وإن لم تمنع ياسمين من علاقاتها مع معجبيها من الذكور، وملك تؤكد لها أنها لا تمانع برغم قتل الغيرة لها كلما اقترب أحد من فراشتها. كانتا تعرفان أن علاقتهما أبدًا لن تُقبل في مجتمعهما ولا من عائلاتهما. بدأتا يتناقشان في المستقبل الذي فرض تساؤلاته عليهما مثلما اكتشفتا بعضهما في الليلة اياها، وصلتا إلى خطتهما معًا وفي اللحظة نفسها، لا تدعي أيهما أنها صاحبة الفضل. وما الخطة؟ ياسمين لابد أن تتزوج حتى ترضي رغبات وضغوط أهلها، ولكن الزوج سيكون محطة حتى يعطيهما هما الاثنتين ما لا يستطيعان الحصول عليه دون معاونة : الأطفال! بعد الزواج ستكونان لبعضهما ومعهما أطفال ياسمين تربيانهما معًا، متمتعتين بهذه الطريقة بكل متعة ممكنة ومتحاشيتين نظرات الناس في مصر إليهما لو استمرتا في الالتصاق وامتنعتا كلتاهما عن الزواج.

ولعل شريف فرض نفسه كخيار أمثل ونموذجي، فلم يكن باحثًا عن حب وغرام بقدر ما كان باحثًا عن وجاهة اجتماعية وحسابات بنكية تناظر أوتزيد على حسابات عائلته، وكان واضحًا أنه لا ينوي التزاما بل سيكون له حياة موازية لحياته الزوجية.

ملك وياسمين تضحكان كلما تناقشتا حول شريف ومازالتا يتساءلان ما إذا كان يشك فيهما. وماذا سيفعل إن عرف أن ياسمين في المرات القليلة التي كانت معه لم يكن على بالها سوى ملك وقدرتها على أن تمتعها. وأصبحت الخطة حقيقة تعيشها ملك وياسمين متمتعتين بكل لحظة فيها.

***

فتحت مها تليفونها فوجدت رسالة من نادية :

«حازم ومها، أردت أن أخطركما أني طلبت من المحامي أن يبدأ إجراءات طلاقي من والدكما».

حالة من الذهول والوجوم اعترت وجه مها حين قرأت رسالة نادية.لم تكن تصدق أن أباها وأمها سينتهيان إلى ما هما فيه، أبوها متزوج سرًّا وأمها مصابة بجرح غائر في كرامتها.

حين رآها تامر في هذه الحالة أخذها في حضنه وهو يكفكف دموعها.

مها : تصور يا تامر بعد العمر ده كله ماما طلبت الطلاق من بابا.

تامر : وليه بتطلب الطلاق، هو كان عمل ايه يعني ؟

مها : جرحها جامد جدًّا يا تامر. بابا اتجوز عليها، أنا عارفة انه بالنسبة لها هذه أكبر خيانة.

تامر : ولكنه لم يعمل شيئا خطأ.. على العكس الرجل طبق شرع الله عمل الحلال وابتعد عن الحرام.

مها: يجوز هو شرع الله، وماما لا تحاول أن تحرم ما أحل الله، ولكن الشرع أيضًا يعطيها الحق أن تعرف، وأن تقرر رغبتها في الاستمرار من عدمه متى عرفت.

تامر : في أصل الشرع يا مها حق الرجل في الزواج من أكثر من واحدة حتى أربع، ما تقولينه إرهاصات واجتهادات. أعني موضوع حق المرأة أن تعرف وتختار كلام مرسل، كلام وضعي يحاول المحدثون أن يلصقوه بأصول الشرع الأصيل المؤكد والمذكور في القرآن وهو أن للرجل أن يتزوج حتى أربع.

مها : إرهاصات واجتهادات عند أئمتك الذين يفصِّلون فتواهم تبعا لأغراضهم. ديننا دين عدل ووسطية وكما للرجل حق ثابت فللمرأة حق القبول من عدمه لأنها بشر مثل الرجل ولها حقوق.

اسمع يا تامر، أنت تعرف كم أحب بابا، وتعرف كم أنا متأثرة بحالته الصحية وأننا بانتظار نفاذ أمر الله ولكنه مخطئ وأمي لا تستحق هذا منه.

تامر : اسمعي يا مها بالإضافة إلى كونه حقًّا شرعه الله للرجل فهو سنة أيضًا عن الرسول الكريم. ولا تنسي أن للرجل القوامة وعلى المرأة الطاعة.

مها : قوامتك على أن تحميني لا أن تؤذيني وتجرحني. يا تامر الرسول له وضعية خاصة وأسبابه في تعدد زوجاته، ثم لماذا لا تتأسون به حين ظل زوجا لواحدة حتى ماتت السيدة خديجة ؟ كلنا نعرف أن كل زيجة من زيجاته كان لها مسبباتها، دعنا نأخذ من الرسول ما نستطيع أن نقوم به كبشر عاديين وليس ما يستطيع أن يقوم به الرسل.

تامر: هي سنة يا مها سواء رضيتِ أو أبيتِ، بل في اجتهادات بعض العلماء هي زكاة للجسد والصحة التي حباها الله للرجل.

مها : زكاة للجسد، أن تتزوج من اثنتين وثلاث هي زكاة للجسد؟! لا يا تامر هو إشباع مقنن ومستتر لشهوات الرجل. شيوخك دائما فتواهم لغرض، وبعيدة ومتطرفة عن آراء أغلبية العلماء الذين ييسرون ويتبعون ما ليس به لبس.

تامر : مها، لا تناقشي الثابت شرعًا والزمي حدود علمك.

مها : علمي لا يقل عن علمك وحدوده قرآني وسنة النبي محمد وفطرة قلبي. الظاهر يا تامر أني لازم أتوقع أنك ستتزوج عليَّ يوما ما.

تامر : غالبا، ولأسباب أخرى أقوى، منها أن أمد يد العون لأمة الإسلام التي أنا جزء منها، فأستر بنات الأمة، وهكذا أكون ناشرًا للعفة. عارفة يا مها لو لم نتكاتف لنشر العفة نكون قد أبطلنا حديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأن من رأى منا منكرًا فليمنعه بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان.

مها : لن أدخل في جدل شرعي معك ياتامر، ليس خوفا منك أو لأنك أعلم مني فأنا عارفة بديني. لن أذكرك أن الله ورسوله والعلماء وضعوا شروطا للزواج من أكثر من واحدة أهمها العدل ثم أكد الله أن الرجل لن يعدل إن أراد. عارف يا تامر، أنت وأمثالك عندكم قدرة على تركيب أشياء بأشياء حتى تثبتوا وتبرهنوا على ما تريدون. اسمع يا تامر قلبك دليلك على الصواب والخطأ، القلب السليم الذي على الفطرة لا يخطئ. كنت أظنك تحبني أكثر من أن تشركني مع أخرى فيك. اسمع يا تامر يوم تريد الزواج عليَّ أو تؤدي زكاة جسدك أو تسهم في نشر العفة أو لأي سبب عجيب

آخر؛ اجعله يوم طلاقي نفسه أرجوك ! سنة أو زكاة جسد أونشر عفة لا يهمني، ولا تقلق فأنا متحملة الوزر في هذا اليوم، وهذا سيكون مطلبي الأخير منك كامرأة أحببتها يوما ما.

لم يرد تامر، وتطلعت مها إلى وجهه وعينيه، عادت إلى ذاكرتها رقدته بالمستشفى، وكيف خافت أن تفقده. وكيف دعت الله أن يبقيه لها، تذكرت رقدته هامدا بلا حراك على سريره في العناية المركزة، بداخلها علا صوت يتساءل إن كان عاد إليها كما دعت أم أنها فقدته يوم أفاق؟

***

هبة كانت في سيارتها أسفل عمارة العائلة في انتظار نزول فريدة. أخيرًا استطاعتا أن يجدا الفرصة كي يتقابلا.لم تكن هبة وفريدة صديقتين مقربتين. ولعل هذا كان سبب استعجاب فريدة من مقابلة هبة لها حين وصلت ورغبتها المتكررة والملحة أن يتقابلا معًا وعلى انفراد. نعم كانت فريدة تحب هبة، ولكنهما لم يكونا ذواتَيْ علاقة خاصة. ولكن مع إصرار هبة وفي أول فرصة أتيحت وسط خضم الأحداث التي تمر بها العائلة اتفقتا معًا على أن يذهبا على الغداء في أحد مطاعم مصر الجديدة المفضلة لديهما. عندما وصلتا إلى المطعم طلبتا طاولة في ركن هادئ وبعيد عن الأعين.ما أنْ طلبتا مشروباتهما حتى قطعت هبة الصمت:

أنا عارفة إنك مستغربة إصراري على لقائك.أنا عارفة أننا لم نكن أبدًا مقربتين ولكني محتاجة أتكلم مع أحد. والحقيقة كلما فكرت فيمن أتكلم معه أو أبوح له بأسراري وأشركه فيما لا يمكن أن يعلمه أحد، أجدك أنت تقفزين إلى ذهني. أنا آسفة إذا كنت أزعجك أوأفرض نفسي عليك.

فريدة : صحيح أننا لم نكن مقربتين لكن هذا لا يمنع أن علاقتنا صحية وأننا نحب بعضنا. لأ يا هبة أنت لا تفرضين نفسك عليَّ وأنا سعيدة أن تكوني اخترتِيني لتشركيني سرك؛ أرجو أن أكون عونًا لك.

هبة: عارفة يا فريدة، ربنا أعطاني كل ما يمكن أن يتمناه إنسان، مالًا وأولادًا وزواجا محترما، لعلي الوحيدة في عائلتي التي كنت دائمًا راضية بل إني كنت دائمًا أشعر أننا لدينا أكثر بكثير مما نحتاج.

فريدة : أنا أعرف يا هبة وأتفق معك، لقد أعطانا الله أكثر بكثير مما نحتاج ولكنه اختبار، أظن ربنا يختبرنا في كيف سنتعامل مع ما أعطانا وكيف سنستخدم عطاءه في الخير.

هبة : هل أحببتِ من قبل يا فريدة ؟

مفاجأة السؤال هزت فريدة. توقف الزمن بها لبرهة؛ فريدة إنسانة كتومة ولا تشرك الآخرين في مشاعرها وبالتأكيد يوم تريد أن تطلع أحدًا على سرها فإن هبة لن تكون اختيارها الأول.

بحثت فريدة في رأسها عن أقرب إجابة دبلوماسية ثم قالت:

من منا لم تحب يا هبة.

لم تكن هبة في انتظار إجابة فريدة، كان بداخلها الكثير الذي تريد قوله، فريدة كانت مجرد أداة لاستقبال ما أرادت هبة أن تخرجه من طيات ودواخل نفسها.

هبة: أتدرين يا فريدة، ما يكمل الحب ويجعله أمتع: إعلانه يا فريدة! الحب والغرام غير المعلن جميل ولكن جماله يتضاعف يوم تستطيعين أن تتباهي به أمام العالم كله وتختالي أمام الناس بسعادتك.

فريدة : خاطر جميل يا هبة، لم أسمعه أوأفكر به من قبل ولكنه جميل. فعلًا، الحب لا يكتمل إلا حين تأخذينه وتعلنين به العالم.

خاطر هبة كان وكأنه قد داس على وتر حساس بداخل فريدة، وتر أطلق بداخلها ألمًا وسعادة في آن واحد فأخرجا ابتسامة على فمها وحزنًا في عينيها.

هبة: لذلك اخترت أن أشركك فيما أشعر به يا فريدة. ستكونين الوحيدة في هذا العالم التي تعرف أني غارقة في الحب.

مرة أخرى فاجأت كلمات هبة فريدة، لم يعد لدى فريدة توقعًا إلى أين ذاهبة هبة بحديثها. وجدت فريدة أن الأفضل أن تصمت وتدع هبة تكمل ما بدأته من حديث.

هبة : فريدة، أنا أحب. لا أدري كيف ولا متى ولا لماذا ؟ لا أدري أين سيأخذني هذا الحب ولكنني أحب.

أنا أحب رجلا غير زوجي، إحساسي ضد كل ما تربيت عليه وضد كل ما تمنيته لنفسي وضد كل ما أعرف أنه صحيح، ولكني غارقة ولا أعرف كيف أنجو من حالة الغرق هذه.

سكتت هبة ونظرت لفريدة، لم يكن يهمها رد فعل فريدة بقدر ما كان يهمها أن تستكمل حديثها وحكايتها :

هبة : أتعرفين ما هو الأسوأ، أني بداخلي لا أريد أن أنجو من حالة الغرق التي وصفتها. أريد أن أستمر بها، أعرف أني يجب أن أتوقف، أعرف أني بصدد تدمير الكثير ولكني لا أريد أن أتوقف.

فريدة: وماذا عن عائلتك، أولادك ؟

تحاشت فريدة ذكر هاشم فقد أصبح واضحًا أنه ليس على قائمة من تفكر بهم هبة.

هبة: أولادي هم الوحيدون الذين يحتلون قلبي مع من أحب. لو أستطيع أن آخذهم وهو معي ونعيش معًا لأصبحت في الجنة.

فريدة: أنت في حالة فوران مشاعر يجب أن تهدئي قليلًا وأن تحاولي أن تتعاملي بمنطقية مع الموقف.

هبة: أي منطقية يا فريدة لقد فقدت كل قدرة على التفكير، أرجوك لا تظني أنني لا أعرف أن ما أفعله خطأ في حق كل من حولي وفي حق ربي الذي أعطاني كل ما تمنيت وأكثر . فريدة حتى ولو أني لا أشعر بأي رومانسية نحو هاشم، فأنا أشعر بذنب رهيب نحوه. إنه أب ممتاز وزوج محترم لم يخطئ في حقي يومًا، ولكنني كما قلت لك واقعة في الحب ومازلت لا أملك القوة الكافية لأنجو مما أنا لا محالة ساقطة فيه.

فريدة : الحقيقة أنا لا أدري ما أقول لك. أنت تصفين موقفا مستحيل فيه النصح، فأنتِ على دراية كاملة بأن ما أنتِ بصدده خطأ وأنت في نفس اللحظة تعترفين أنك لا تقدرين على انتشال نفسك منه. لا أدري ماذا أقول، لا أستطيع أن أحاضرك عن فداحة ما تفعلينه، فأنتِ تعرفين ذلك وتعانين تأنيب ضميرك لأنك تفعلين ما ليس من طبيعتك.

هبة : مضبوط يا فريدة، أنا زوجة وأم وابنة لأناس جميعهم سيكون جرحهم غائرًا إذا عرفوا يومًا أني مغرمة خارج زواجي.

فريدة : وهل حبيبك مشاعره متوقدة مثلك يا هبة ؟

هبه : نعم، نحن الاثنان في حالة تيم وغرام، لا تقلقي إنه لا يضحك علي ولا يوهمني بحب غير موجود لا يملؤه مثلما يملأني؛ أنا لست بلهاء أو ساذجة يا فريدة إنه يحبني ويعشقني.

فريدة: وهل تحول حبكما من مجرد مشاعر جامحة كالتي تصفينها إلى علاقة جسدية؟

هبة: أكثر من سنة وأناس في سننا ومع هذا لم يزد ما بيننا على قبلة أوقبلتين وربما تشابكت أيدينا متى جاءتنا الفرصة. وضعي ووضعه لا يسمحان لنا بأكثر من هذا.أتدرين ما الأجمل، كان يمكننا أن نفعل ما هو أكثر من ذلك وكانت لدينا الفرص، وكان بإمكاننا أن نخلق فرصا أكثر ولكننا لم نفعل.

فريدة: هل هو متزوج أيضًا ؟

هبة : نعم متزوج ولديه ابن واحد.عارفة يا فريدة أني أموت يوميًّا حين أتصوره مع زوجته، وأموت يوميًّا وأنا أريده كله لنفسي وأنا أتمناه جسديًّا كل ليلة، ولمسة هاشم المسكين لي أضحت كالجمر وأنا لا أفكر إلا في حبيبي. سأجن يا فريدة، سأجن ولا أدري ما أنا فاعلة.

فريدة: أنتما الاثنان ماذا تريدان ؟ أين تريان نفسيكما ذاهبين بعلاقتكما هذه؟ كيف تريان النهاية؟

هبة : لقد أوقفنا البحث عن نهاية.كل ما نعرفه أننا لا نستطيع أن نفترق عن بعضنا وأن كلًّا منا أصبح شريان حياة الآخر وفي الوقت نفسه وصلنا إلى أن كلا منا لا يستطيع ولن يستطيع أن يدوس على من حوله بأنانية حتى يسعد بما يريد قلبه. أنا لا أستطيع أن أترك أطفالي أو أن أحرمهم من أب يعشقهم عشق هاشم لهم، لا أستطيع أن أجرح بابا وماما وأصدمهما بقرار مثل هذا. ولعلي بتضحيتي بسعادتي الأكيدة معه أكون أعاقب نفسي على سقطة وقوعي في حبه.

فريدة: اسمعي يا هبة، أنا لن أعظكِ فأنا أشعر بما أنتِ فيه، وأشعر بكم الصراع الذي تعيشينه والوضع المستحيل الذي تنامين وتصحين عليه،

ولكني سألفت نظرك إلى أن أمامك خيارين اثنين، كلاهما بالمناسبة صحيح وقويم : فالصحيح أن تختاري عائلتك ولكن لا يصبح صحيحًا إلا بإنهاء علاقتك به؛ والصحيح أيضًا أن تذهبي معه ولكن في العلن وأمام العالم كله. الخطأ يا هبة أن تستمري فيما أنتِ فيه، ستصابين بالجنون وسيؤثر هذا عليكِ وعلى كل من حولك ممن تحبين، إن لم يكن قد بدأ يؤثر عليهم فعلًا.

هبة: أتدرين يا فريدة إنك تقولين إن الحلين صحيحان وأنا أراهما مملوءين بالأخطاء. لذلك أنا حيث أنا ونعم سأجن ونعم حالتي مؤثرة على من حولي ولكني لا أسعد إلا حوله ولا يخفق قلبي إلا حين أطمئن عليه ولا أبتسم إلا حين أسمع صوته ولا أضحك إلا حين يكلمني.

قطع الحوار صوت تليفونات هبة وفريدة وهما يعلنان وصول رسالة لكل منهما في تزامن مدهش.

فتحت هبة تليفونها فوجدت رسالة من حبيبها مروان:

«وحشتيني، هل قلت لفريدة كم أحبك ؟»

بقدر الابتسامة التي ارتسمت على وجه هبة بقدر ما ارتسمت الدهشة على وجه فريدة وهي تقرأ :

«مفاجأة، أنا في القاهرة،هل أستطيع أن أراكِ... ديفيد».

***

عندما فتح حازم الكمبيوتر لم يتوقع أن تكون هناك رسالة من هيلاري على بريده:

كيف حالك يا حازم، لقد أوحشتني جدًّا. نحن الاثنان قصرنا في حق بعضنا حين قطعنا اتصالنا ببعضنا. أنا بخير، وأعمل الآن بأحد صناديق الاستثمار الكبرى بشيكاغو.برغم حالة الاقتصاد العالمي العام الماضي فقد كان أداؤنا جيدًا. وأنت، ما أخبارك كيف تسير أعمال العائلة؟ هل ضاعفت عبقريتك حجم أعمالهم.لقد أوحشتني عن جد.

حازم، سأصل القاهرة في زيارة عمل الليلة. على المستوى الشخصي أتوق لرؤياك وإلى عشاء تنظمه لي وحدنا على ضوء الشموع ومع اختياراتك من الموسيقى الحالمة التي طالما سحرتني بها.

على المستوى المهني أريدك أن تقدمني إلى زبائن محتملين لي. أريد شخصًا أوشخصين مستعدين أن يستثمرا معي كبداية 2 مليون دولار أو أكثر.. كل منهما.

سأنتظر ردك في الميعاد الذي ستختاره لليلتنا الرومانسية.

قبلاتي وأحضاني

هيلاري

علت الابتسامة وجه حازم وهو يتذكر جمال وأنوثة هيلاري واقتراحها لليلتهما معا.

***

الفصل السادس

صفقات بعد مداولات

كان قد مر على زواج هاشم بهبة ثماني سنوات أو أكثر قليلًا، لم يقترح خلالهما شريف أن يذهبا معًا إلى العمل يومًا وهما اللذان يسكنان ويعملان في المكان نفسه. لذلك استغرب هاشم حين وجد شريف يدعوه للذهاب معه للشركة واستغرب أكثر حين وجد أن شريف يقود السيارة بنفسه تاركًا سائقه يتبعهم في سيارة هاشم مع سائقه.أدرك هاشم أن شريف يريد منه شيئًا فاسترجع تدريبه الدبلوماسي وقرر أن يلتزم الصمت جاعلًا شريف يجد طريقه إلى طلبه دون معاونة منه. لن يجعل طريقه ممهدًا وإن كان لن يجعله صعبًا أيضًا.

دخل السيارة وجلس بجانب شريف، وبعد أن حياه جلس في هدوء ناظرًا أمامه. ساد هدوء متوتر السيارة، وبدا وكأن شريف يبحث عن كلمات يبدأ بها حديثه أوعن مدخل مبتكر لما يريد أن يفاتح هاشم به. لم يكن يريد أن يكون كلامه وغرضه مكشوفًا لهاشم بل كان يريد أن يكون كلامه كله مواربًا بحيث يجس نبض هاشم ويعرف موقفه من مراده.

استمر السكون والسيارة تخرج من بوابة الڤيلا وتدلف إلى الشارع. شريف قرر أن يقطع الصمت بسؤال مباشر :

إيه أخبار الشغل يا هاشم ؟ مبسوط فيما تفعل ؟

هاشم : الشغل كويس. المجموعة التي تعمل معي في العلاقات الدولية معقولة ولكن الإدارة مازالت حديثة كما تعلم.

شريف : حديثة؟! كيف تقول إنها حديثة يا هاشم؟! لقد مضى عليها أكثر من خمس سنوات.

أحس هاشم بشيء من الحرج، فعلًا لقد مر أكثر من خمس سنوات منذ إنشاء هذه الإدارة بالشركة وجعلوه يترأسها.

فكر في رد مناسب ولكنه وجد عقله خاويًا من أي قدرة على جعل تصريحه بأن الإدارة حديثة منطقيًّا.

هاشم: لم أقصد حديثة بمعنى حديثة، قصدت شابة، لم تأخذ فرصتها كاملة بعد. أتدري ما أعني يا شريف ؟

أحس شريف أن هجومه الخفيف على هاشم قد وضعه في موقف دفاعي وأحس بحاسة القناص أنه وجد مدخله للسيطرة على هاشم.

شريف: بالضبط ما أردت قوله يا هاشم. الإدارة عندك المفروض أنها تكون أكثر إنتاجًا وأن تكون نتائجها أكثر إيجابية ولكني أحس أننا لم نعطك كل الإمكانيات التي تمكنك من إعطائنا النتائج الباهرة التي تستطيع الوصول إليها.

أخذ هاشم نفسًا عميقًا وأتبعه بآخر، هل يصارح شريف بأنه سعيد بكمِّ إنتاجه وأنه لا يريد أن يضع مجهودًا أكبر في عمله، بالضبط كما تعود في عمله في الخارجية وكما رأى أباه يعمل. ولكنه في الوقت ذاته

سيسعد بإدارة أكبر وعدد موظفين ومعاونين أكثر وربما سيستطيع بمزيد من الإمكانات أن يعقد صفقات تبعد عنه شبهة أن حماه أنشأ إدارة له كي يستريح فيها ويقبض منها مصاريف فتح بيته وإعاشة زوجته وأولاده على مستوى المليونيرات الذي يعيشونه. مازال لا يدري ماذا يريد شريف منه، ولكنه قرر أن يجاريه للنهاية ليعرف مبتغاه.

هاشم: والله يا شريف هناك الكثير والكثير الذي نستطيع إنجازه بإضافة القليل من الإمكانيات.تعرف أن هناك كمية صفقات تضيع علينا إما لتأخر اتخاذ القرار أولعدم وجود إمكانيات التنفيذ في التوقيت المطلوب.

شريف : أعرف يا هاشم. وأعرف أيضًا كم علاقاتك وأن زملاءك ودفعتك في الخارجية الآن أصبحوا قناصل أو سفراء وأنهم يستطيعون مساعدتك وفتح أبواب كثيرة لك ولنا.

انتشى هاشم وشعر بأهميته وهو يسمع كلام شريف الذي يبدوأنه يقدره ويقدر اتصالاته والفرص التي من الممكن أن يجلبها لأعمال العائلة. قاطع شريف أفكاره مرة أخرى بقوله :

لكننا نحتاج إلى تغييرات كثيرة في هياكل الشركات، نحتاج تغييرًا رأسيًّا وأفقيًا، من فوق إلى تحت، ثورة تمكننا من التطور والوصول إلى أهدافنا، ما رأيك ؟

أصعب لحظات حياة هاشم كانت حين يحتاج أن يبدي رأيه. ثقافته الواسعة، وقراءاته المتعددة تمكنه من عرض مجموعة آراء ونقد كل

منها وإبراز إيجابياتها في يسر، لكن دون الحاجة لأن يكون له رأي فيها؛ دبلوماسي على الفطرة. انزعج هاشم وشريف يطلب منه رأيا، شعر أنه تحت ضغط، لم ينقذه سوى استرسال شريف في حديثه.

شريف : أتدري يا هاشم، أنا أراك على رأس إدارة قوية للعلاقات الخارجية تفتح لنا أسواقًا جديدة. أراك تقضي وقتًا طويلًا مسافرًا، وأرى زملاءك في الخارجية منتظرينك ليفتحوا لك أبوابًا لم يكن مخططًا لها.

لم يحس هاشم بالابتسامة التي سيطرت على وجهه وجعلت شريف يشعر أنه نجح في الوصول إلى مفاتيحه، رأى نفسه وهو يعقد الصفقة تلو الأخرى، وهو يطير من عاصمة إلى أخرى، متباهيا على زميل دفعته السفير بما وصل إليه من مال وجاه.

كملاكم متمرس قرر شريف أن يلقي بالقاضية ويطرح هاشم أرضًا ليكون طوعًا لرغباته وطلباته فنظر إليه قائلا :

أتدري يا هاشم إدارة مثل هذه يجب أن يكون لقائدها نسبة من أرباحها. نسبة محترمة تجعله شريكا فيها ومسئولًا عن نتائجها. نسبة تجعل المرتب الذي تحصل عليه الآن لا يمثل شيئا مما تجنيه وتجعل حساباتك البنكية بالملايين.

قطع هاشم صمته ونظر إلى شريف وقال:

لو حدث هذا يا شريف تأكد أنني سأعطيك نتائج جبارة، لن تندم إذا قمت بالتطوير الذي تريده وجعلتني جزءًا من خطتك في التغيير.

شريف: أنا كنت أعرف أنه يمكنني الاعتماد عليك، لكني لا أستطيع التغيير وحدي، لابد أن تساندني كي نغير معا يا هاشم. تذكر دائمًا أنك مثلما تحتاج دعمي فأنا أيضًا أحتاج مساندتك وأن أكون خيارك.

باقي الطريق إلى المكتب كان كل منهما مع أفكاره، هاشم يتصور وضعه الجديد بعد التغييرات التي اقترحها شريف، وشريف يجهز خطة أول اجتماعاته حين يصل المكتب. الاثنان لم يكلفا نفسيهما أن يكلم أحدهما الآخر حتى وصلا مقر الشركة.

لم يدخل شريف إلى مكتبه فور وصوله، بل توجه إلى مكتب حازم. كان متأكدًا أن حازم كالعادة في مكتبه أمام شاشة الكمبيوتر يراجع إقفالات بورصات الشرق الأقصى وتوقعات بورصات أوروبا لليوم الذي انتهى في ركن وبدأ في ركن آخر من المعمورة.

شريف : صباح الخير يا حازم ممكن تشربني فنجان قهوة ؟

حازم: يا سلام !! فنجانان كمان يا شريف. خطوة عزيزة.

شريف : أخبارك إيه يا حازم ؟ قلبي معك في موضوع عمو مجدي. إن شاء الله ربنا يكرمه.

حازم : لكل أجل كتاب يا شريف. هذه سنة الحياة. ثم أنا لم أعد أجزع أو أنزعج من أي شيء كل شيء مقدر ومكتوب.

شريف : قل لي يا حازم، أين ترى نفسك 5 سنوات من الآن ؟ لا، لا ترد على هذا السؤال. قل لي من خمس سنوات مضت هل كنت ترى نفسك جالسًا هنا ؟

حازم (ضاحكًا) : لا يا سيدي، منذ خمس سنوات لم أكن أرى نفسي هنا، كنت أرى نفسي ربما مع عمو يوسف في مكتب أمريكا، أو أرى نفسي رئيسًا للشركة التي كنت أعمل بها، لكن هنا بصراحة لم تكن تخطر لي على بال.

شريف : هل تريد البقاء هنا ؟ هل مازالت طموحاتك أن تعود إلى أمريكا ؟

حازم : أمريكا ليست طموحي يا شريف. طموحي أن أستطيع أن أحقق نجاحات فيما أعمل.

شريف : أنت ناجح في كل ما تعمل يا حازم وأنت تعرف ذلك جيدًا.

حازم : ولكني أستطيع أن أعمل المزيد، أتعرف يا شريف المشكلة هنا أن الناس لا تراني كاملًا، تراني معوقا أو مقعدا كما يسمون أمثالي. ولكني لا أشعر بأي إعاقة، الناس حولي هم من يعيقونني. البلد هنا هي المعاقة وهي التي أصبحت معوقة لأهلها. أمثالي في أمريكا لا يجدون صعوبة في الحياة وحدهم لأن أمريكا مجهزة لهم أما هنا فأمثالي يصبحون كمن يتجاوزون الحواجز التي لا تنتهي.

شريف : صحيح يا حازم، أمريكا جهزت نفسها بحيث لا يشعر فيها أحد أن هناك شيئا يعوقه عن تحقيق أحلامه والوصول بطموحاته إلى أقصاها.

هل عرفت أن عمو يوسف قرر التقاعد ؟

حازم : فعلًا ؟ لم أكن أدري.

شريف : ولهذا أنا جئت أتكلم معك يا حازم. أنا أراك الأجدر بأن تحل محله وأردت استطلاع رأيك. بابا وعمو عمر كانا يفكران أن يحل نائب عمو يوسف الأمريكي محله.

سكت حازم وزاغ بصره وهو يسمع كلام شريف، لم يحتج طويلا ليرد.

حازم : طبعًا أحب جدًّا أن أحل محل عمو يوسف ولكني غير مستعد أن أدخل أطلب هذا الطلب من عمو فهمي أو عمو عمر، صعب عليَّ يا شريف أن أستجدي هذا منهم.

شريف : لا أظنك تحتاج أن تستجدي يا حازم، بالذات أنك تستحق هذا المركز وأنت الأجدر به. اسمع يا حازم أنا أظن أنه لابد أن تحدث بعض التغييرات هنا في الشركة قريبًا. وأنا عن نفسي سأقود بعضًا منها، ولكن كما درسنا في الإدارة الحديثة ستحدث مقاومة وبالذات من الأكبر سنًّا، ولكن يجب علينا أن نتكاتف حتى نطبق ما درسناه وصرفوا علينا آلاف الدولارات كي نتعلمه.

حازم : هناك كمٌّ من الأشياء محتاجة للتغيير هنا، ولكن الجميع غارق وقانع بما اعتاد عمله منذ سنوات، ولا توجد الرغبة أبدا في التغيير أو التحسين.

شريف: مادام هذا رأيك إذن أستطيع الاعتماد على تحالفنا ومساندتك حين يحين وقت التغيير ونخوض صراعه. وأؤكد لك يا حازم أنك الأقدر

على تولي قيادة أعمالنا في أمريكا، بل أنا متأكد أنك ستتألق هناك وتقودنا إلى إنجاز تلو الآخر.

حين أنهى شريف جملته ومعها فنجان قهوته، كانت أعين حازم تتألقان وتلمعان وهو مملوء سعادة بفكرة عودته إلى أمريكا على رأس مكاتب الشركة هناك، فرحة إمكانية عودته إلى حيث يعامل دون أن ينظروا إلى كرسيه المتحرك أو يحيطوه بشفقة لا يرى أنه في احتياج إليها.

ما أن جلس فهمي على كرسيه حتى اتصل بعمر بالتليفون.

فهمي: صباح الخير يا عمر. أرجو أن تحضر لي شيكين كل منهما بمبلغ مليون دولار وصادر لحامله.

عمر : حاضر يا فهمي.

ثم حدث صمت وعمر منتظر أن يقول له فهمي لمن ستذهب الشيكات أو ما موضوعها ولكن فهمي أنهى المكالمة طالبًا منه أن يبعث إليه الشيكات على الفور إلى مكتبه.

دق تليفون فهمي ليجد سكرتيرته تعلنه أن نهلة ومحاميها قد وصلا فطلب إليها أن تبقيهما عندها إلى أن يصلها المظروف الذي سيبعثه إليه عمر.لم يطل انتظار فهمي فسرعان ما دخلت السكرتيرة وبيدها مظروف عمر المغلق وخلفها نهلة ومحاميها.

لم يكن فهمي راغبًا في أحاديث مطولة مع نهلة، صفقة أراد أن ينتهي منها، صفقة لم يستطع أن يناقش شروطها أوأن يصل بهذه الشروط إلى

ما يريد ولذلك كانت ثقيلة على قلبه وإن خفف عنه أن هذه كانت آخر ما سيقوم به لرفيق العمر مجدي لم يخطر لهما ببال أنهما يومًا سيفترقان وكأن الموت لم يكن ليستطيع الاقتراب منهما ماداما معًا.

نظر فهمي إلى نهلة وطلب منها أصل عقد الزواج العرفي الذي بينها وبين مجدي، أخرجته من حقيبتها ومدت يدها به إليه.حين عاين العقد تعرف عليه وعلى إمضائه عليه كشاهد. كان قد أخرج النسخة الأخرى من العقد من خزينة مجدي.شد بيده درج مكتبه وأخرج الأوراق التي طلب محاميه أن توقع عليها نهلة حتى تبرئ ذمة مجدي نهائيًا ولا يكون لها حقوق من بعد. وهو يعطيها الأوراق لتراجعها هي ومحاميها، فتح الظرف الذي أرسله له عمر وأخرج الشيك منه ولاحظ أن نهلة قد تنبهت لما يحمله بيده فبدت اللهفة تعلوها وهي تقرأ ما بيدها، بل إنها لم تستطع أن تقاوم طويلًا فأخرجت قلمها ووقعت الأوراق وأعطتها إلى فهمي ويدها الأخرى تأخذ منه الشيك كمقابل. في لحظة تراءى لفهمي أن يطيل عذابها فيسحب يده بالشيك، ولكنه قرر أنه يريدها خارج مكتبه في أسرع وقت. لم يرد عليها وهي تشكره وتلقي عليه التحية،كل ما تذكره هو قوله لها :

لا أريد أن أراكِ أوأسمع منكِ مرة أخرى بعد اليوم.

حين جلس إلى مقعده تفحص فهمي المظروف الذي أرسله عمر فتأكد من وجود الشيك الآخر الذي طلبه.

***

كان شريف جالسًا مع عمه يوسف في مكتبه، كان شبه متأكد أن عمه الأمريكي سيكون من كبار مؤيدي التغيير.

شريف: عمو يوسف أنا أعرف أنك ترى أننا محتاجون إلى الكثير من التطوير والتغيير.

يوسف : أكيد يا شريف ولكن أباك لا يريد تغييرًا سريعًا، هو يؤمن بأن التغيير يجب أن يكون بطيئًا وعلى نار شديدة الهدوء. اسمع، أبوك عمل ونجح وأنجز فلا يستطيع أحد أن يقول إن أفكاره وإدارته لا تستدعي الاحترام والإعجاب.

في لحظة قرأ شريف أن الاتجاه الذي يسلكه مع يوسف لن يصل به إلى حيث يريد، فأدار بوصلته وأعاد توجيه حديثه.

شريف : عارف يا عمو يوسف، أنا فقط قلق وخائف على بابا من عناده واستمراره على نفس العنفوان ونفس مستوى الجهد، انظر ما حدث لعمو مجدي ولكن لا أحد يقدر على بابا.

يوسف : معك حق يا شريف، فهمي رافض لفكرة أن للسن حكمه، عناده في هذا الموضوع غير طبيعي.

شريف : لابد أن نجد حلًّا لهذا الموضوع يا«عمو» يوسف. إذا كنا فعلًا نحبه لا يمكن أن نتركه هكذا إلى أن يسقط مثل«عمو» مجدي. لا أدري ما

الذي يمكننا فعله ولكن إذا جاءت فرصة حتى وإن لم نخطط لها فيجب أن نأخذها، حتى لو جعلته حزينًا لحظيًّا، فأنا متأكد أنه سيقدر أسبابنا ودوافعنا بعدها.

يوسف : أنا لا أدري ما الذي يدور برأسك يا شريف، ولكنني مع ما فيه مصلحة فهمي ومصالحنا جميعًا، وأنا معك أن فهمي محتاج أن يهدئ رتمه بعض الشيء.

في حساباته وضع شريف عمه يوسف في خانة المحايد.

***

جاء صوت السكرتيرة مبلغًا فهمي :

سلمى هانم في انتظار سيادتك.

طلب فهمي من السكرتيرة إدخال سلمى على الفور. حين دخلت سلمى على فهمي مكتبه لأول مرة منذ عرفته كان الارتباك يعتريها.

سلمى: خير يا حبيبي، دائمًا ما قلت لي إنني ممنوعة من زيارتك هنا.

فهمي: خير إن شاء الله يا سلمى، موضوع مهم أردت أن أخبرك به.

سلمى : تحت أمرك يا فهمي، قول لي يا حبيبي.

فهمي : اسمعي يا سلمى، أنتِ تعرفين كم أعزك وكم أسعدتِني. أنا عرفت نساء كثيرات في حياتي ولكني أشهد لك أنك كنت أكثرهم قربًا إلى قلبي لم ترهقيني يومًا معنويًّا بطلبات رومانسية وكنت دائمًا متفهمة لاحتياجاتي.

ابتسمت سلمى وردت: وأنت دائمًا كنت مصدر الأمن لي، وجودك في حياتي أزال منها أي أسباب للقلق؛ربنا يخليك لي دائمًا.

فهمي: سلمى، بعد ما حدث لمجدي جاءتني أفكار وخواطر كثيرة أنا لا أريد أن يكون هناك سر أو أسرار في حياتي يفاجأ بها أهلي حين أرحل.

سلمى : ربنا يعطيك طول العمر يا حبيبي.

فهمي : لا تقاطعيني يا سلمى، ما أنا بصدد إخبارك به صعب علي دون مقاطعات. سلمى أنا لن أستطيع الاستمرار في علاقتنا، لأني إما أن أعلن عن علاقتنا وهذا ما لا أستطيعه لأسباب اجتماعية ولمركزي ونظرة الجميع إليَّ؛ وفي الوقت ذاته لن أستطيع أن أستمر في علاقة سرية. أنا كبرت يا سلمى على أن يكون لي علاقة في الخفاء. أتدرين لو أن خياري بيدي لاخترتك أنت بلا تردد ولقضيت المتبقي من عمري معك.

اعترت الدهشة وجه سلمى وهي تسمع فهمي يخطرها بقرار إنهاء علاقتهما. أرادت أن تصرخ بأعلى صوتها معلنة عن جرحها، ولكنها منعت نفسها، فمنذ يومها الأول معه عاهدت نفسها ألا تكون يومًا سبب فضيحة أو إحراج له.يوم ارتبطت به كان وسيلتها للوصول إلى حياة موسرة دون شظف لم تجد لها سبيلا بديلا. في عرف الكثيرين باعت شبابها للكهل ولكن في قرارة نفسها أحبته وأخلصت له وعاشت سعيدة وقانعة أن تكون خليلة الخفاء ورفيقة الظلال.

لم تدر ماذا تقول وهو يشرح أسبابه، اقتصر رد فعلها على النظر له في ذهول، ثم ما لبثت أن بدأت تلملم حاجياتها مقررة أن تغادر مكتبه.

استوقفها فهمي قائلا : يا سلمى أنت شابة ومازال أمامك حياة تستمتعين بها مع من يستطيع أن يفخر بك أمام العالم. سلمى ستكونين غضبى مني الآن وغالبًا كلما تذكرتني ولكني أرجو أن تعرفي دائمًا أنني أحببتك؛ حقيقة لم أحبك في البداية ولكن عشرتك جعلتني أحبك وأغرق في حبك. أريدك

أن تصدقي أن جزءًا من انفصالي عنك هو حبي لك ورغبتي أن تعيشي حياة طبيعية في النور.

ضم فهمي سلمى إليه فسرى في دمائها الأمل من جديد، أمل انتهى مع كلماته التالية :

سلمى هذا شيك لك بمليون دولار وهذا عقد الڤيلا باسمك. أنت بنت ذكية، ابدأي حياتك وأنت واقفة على رجليك، نصيحة محب لك: تحري الدقة فيمن ستختارين رفيقًا للمتبقي من رحلتك، لن أكون موجودًا لأعاونك أو أنصحك في هذا ولكن اعلمي أنني دائمًا سأدعو لك بالخير.

أمسكت سلمى بما مد به يده واستدارت وسارت حتى باب الغرفة، قبل أن تفتح الباب وتخرج نظرت إلى فهمي وقالت له :

أحبك .

ما أن خرجت سلمى من المكتب حتى اتصل فهمي بنادية وطلب أن تقابله عند أمهما في المساء .

***

مازال ما في القلب في القلب حتى لو اختلفت مسارات الحياة، تامر وشريف مازالا يحتفظان لبعضهما البعض بمعزة ومكانة خاصة، عندما دخل تامر على شريف مكتبه التقت عيناهما مملوءتان بالحب والصداقة التي دائما ما جمعتهما.

بدأ شريف حديثه قائلًا : تامر، أظن أنه قد حان الوقت كي تتولى مسئوليات شركة المقاولات في المجموعة.

ضحك تامر قائلًا: وكيف سيحدث هذا وأبوك يخاف من ذقني ؟

شريف: عنده حق، ذقنك الطويلة مخيفة بعض الشيء. اسمع يا تامر ستحدث تغييرات وأنا أريدك أن تكون بجانبي وأنا لا أثق في أحد مثل ثقتي بك.

تامر : وأنت تعرف أن ولائي لك يا شريف، ولكن هناك بعض الأمور التي قد يمنعني ديني من القيام بها.

شريف : موضوع الفنادق ليس بمشكلة، مع التغييرات سأقوم بفصلها عن قطاع المقاولات ثم يمكننا دراسة التخلص منها من أساسه بالبيع.

تامر : بارك الله فيك يا شريف. هذا كلام محترم ويرضي الله.

شريف : ثم هناك شيء آخر يا تامر. أريد إنشاء قطاع أو إدارة للخير، نضع بها كل أموال زكاتنا وكل ما نتبرع به لوجه الله ونديره كما يفعلون في

الخارج بحيث نوجهه للمستحقين بجد. أريد أن يذهب ما نوجهه للخير إلى مستحقيه وإلى مكانه المرجو فعلًا. أريد إنشاء جمعية تكون نواتها خمسين مليون جنيه لغرض الخير، مثل الأوقاف الخيرية زمان.

بدا التأثر في صوت تامر وهو يدعو لشريف ويثني على نياته.

بهدوء أضاف شريف : ولكني لن أعمل هذا ما لم تقبل أن تكون أنت على رأس هذه الجمعية. أنت الآن أدرانا بالشرع وبأفضل سبل التصرف في الزكاة. من فضلك يا تامر فكر في طلبي هذا.

ابتسم شريف من داخله وهو يرجو تامر أن يقبل ما أيقن أنه كان قمة الطرب لأذنيه. لم يكن هناك حاجة لكلام أكثر مما قيل، افترق الصديقان وقد عقدا صفقة ووقعاها دون حاجة لمناقشة تفاصيلها.

نظر شريف في ساعته، اليوم يقترب من نهايته، يوم مليء بالإثارة ولكنه أيضًا مثمر، بقي له اجتماع واحد، سيمر على عمه عمر في مكتبه. فكر قليلًا ثم قرر الاكتفاء بما أنجزه في يومه، ثم إنه ليس بحاجة حقيقية لعمه الأصغر، بل ربما يعرِّض خطته للخطر بالتحدث مع عمر. غير وجهته إلى خارج المبنى وطلب من سائقه أن يذهب به إلى الفندق الشهير بمصر الجديدة، سيكافئ نفسه بمساج من نوع خاص بعد يومه الطويل المضني.

***

◆

الفصل السابع

وجبات مشبعة

لا تدري فريدة لماذا تذكرت آخر لقاء لها مع ديفيد في نيويورك حين ركبت السيارة وهي متجهة لتراه في القاهرة. لا وجه مقارنة بين القاهرة ونيويورك، إذن فهي ليست ذاكرة المكان، والسيارة الفارهة التي تركبها في القاهرة لا تقارن بتاكسي نيويورك الأصفر المتهالك الذي أوصلها إلى المطعم الذين لقيته فيه. ولا الجو ولا الوقت، فقد كان ميعادهم في نيويورك على الإفطار وهما سيلتقيان في فندق بالقاهرة على العشاء. قررت ألا تحاول تفنيد الأسباب واستغرقتها ذاكرة آخر لقاء لهما قبل عودتها إلى القاهرة.

برودة نيويورك صباحا تعطي إحساسًا بالنضارة لا يقارن، إحساس بالإقبال على الحياة والرغبة فيها.كانت فريدة تريد أن تمشي إلى حيث تلتقي ديفيد، فهي دوما عاشقة لشوارع مانهاتن. لم تمش طويلا إلا وقررت أن تأخذ تاكسي خشية أن تتأخر عليه خاصة أن كلاهما ذاهب إلى عمله ولديه مواعيده بعد إفطارهما معا.حين نزلت من التاكسي كان ديفيد واقفا أمام المطعم في انتظارها كعادته،كان وسيما بابتسامته ومتأنقا في بدلته،كل تفصيلة في مظهره وملبسه مدروسة. لا يمكن إلا أن يكون محاميا وقديرا في مهنته كذلك. حين رأته اتسعت ابتسامة فريدة، فها هو حبيب القلب في انتظارها. عامان وهما معا منذ التقته في مؤتمر شباب محاميي أمريكا

الذي حضراه معا في كاليفورنيا. حين أخذها في حضنه وقبَّلها قبل أن يلف ذراعيه حول خصرها ويقودها الي داخل المطعم، أحست فريدة أن اليوم سيكون مميزا. لقد أصبحت تحس ديفيد ومشاعره دون أن ينطق. كانت تعرف معنى كل حركة أو إيماءة منه وتستطيع كذلك تفسير لحظات سكونه. ولكنها كانت تخشى حبهما، وإلى أين هو آخذهما.لم تكن ترى الزواج تتويجا للعاطفة التي يعيشانها. كانت تخاف أن يصبح الزواج هو حلهما الأوحد؛ لأنه لن يؤدي إلا إلى نهايتهما : فمن المستحيل أن يقبل يوسف لفريدته بديفيد، وهو الذي عاش حياته لا يوصيها إلا بطلب واحد هو أن تتزوج مسلما، وهل ترضى فريدة الجدة أن تتزوج حفيدتها المفضلة من يهودي أمريكي؟

أوقات كثيرة أرادت فريدة أن تستعين بجيناتها الأمريكية لتصارع وتردي وتتخلص من هذه الهواجس والمحاذير كي تستطيع الانطلاق في عيش حياتها دون حاجة للقلق مما قد تسببه اختياراتها من قلاقل أو جروح لآخرين تحبهم ويحبونها؛ ولكن هيهات فيبدو أن جيناتها المصرية كانت هي المهيمنة والمسيطرة. حتى مارجو حين لجأت إليها فريدة لم تنصرها برأي قاطع بل فضلت أن تكون نصيحتها لابنتها أن توازن أمورها وتبحث عن أين يكون درب سعادتها. وأن السعادة الحقيقية لا ترتبط بشخص واحد دون اعتبار لآخرين أثروا وشكلوا حياتها وأنه لابد من وجود نقطة توازن وأنها إن بحثت لوجدتها. أمها ابتسمت واحتضنتها وتعاطفت معها ثم همست في أذنيها أنها ناضجة بدرجة أن تأخذ قرارها دون الرجوع إليها،

واكتفت في هذا اليوم بدور الناصحة متفادية توجيه فريدة في اتجاه دون غيره.

ديفيد في هذا اليوم كان مخططا لكل شيء وآخذا كل شيء في الاعتبار. الطاولة التي اختارها لهما كانت في الجانب الهادئ للمطعم الشهير.كان قد حضر مبكرا فالتقى مع المدير والطباخ وأعطاهما طلباته ورغباته ونسق معهما كيف سيفاجئون فريدة. أعطاهم ما كانوا سيخفونه داخل طبق الحلوى الذي سيطلبه ديفيد لفريدة ؟

حين جلسا إلى الطاولة كان حديثهما كعادتهما معا سلسًا ومنطلقًا، كانت ابتسامة المحبين تملأ الأعين وتزين الأوجه.

ديفيد أصر أن يطلب كل شيء دونما تدخل من فريدة، وهي استسلمت لرغبة رجلها، ولم تجد صعوبة في ذلك فهي إضافة لحبها له فهي من كبار المعجبين بذوقه وتذوقه وقدراته على الاختيار. العذوبة التي مر بها الوقت جعلت فريدة متسائلة حين وضعوا أمامها طبق الحلو:هل معقول مضى الوقت بهذه السرعة ؟ أريد أن أتمتع بك أكثر يا ديفيد، هي الفكرة التي استمرأتها واستطيبتها لحظتها. قبل أن تبدأ في طبقها أطال ديفيد نظرته إليها وكأنه يمدها ويزيدها من جرعات حبه. حين وجدت فريدة الخاتم في الطبق رفعت عينيها إلى ديفيد دون شك أنه واضعه حيث أرادها أن تجده. ابتسمت له ابتسامة قلقة وكأنها تستجديه ألا يخطو خطوته التالية. ولكن ديفيد كان عاقدا العزم، فهمس إليها أنها مناه،وأنه يريد أن يمضيا حياتهما

معا إذا سمحت له. هو اليوم الذي تمنته وخشيته في آن واحد. لا أدري، أنا سعيدة وراضية بنا كما نحن الآن ولا أريد تعقيدات حاليا. هكذا فكرت فريدة سأكسب أحب إنسان لي في الوجود ولكن في المقابل كم سأجرح ممن يحبونني ؟ هل أنا قادرة على مثل هذا الجرح ؟ ولكني غير قادرة على أن أقول لحبيبي لا أيضا، فأي حياة تكون بدونه؟!

وكأن ديفيد أحس بما هي فيه، فهو من يعرفها قلبا وقالبا. يعرف بالضبط ما يدور في فكرها، لم يرد لحبيبته أن تكون في موضع اختيار، فحين أحس ترددها لم تنجرح كرامته أوتصاب رجولته، بل على العكس شعر أنه إن كان يحبها كما يظن فلابد له أن يقف بجوارها ويساندها بكل ما أوتي من قدرة وقوة على أن يكون قرارها دون قلق أوندم في يوم من الأيام. أمسك ديفيد يدها وأسرّ إليها أنه لا يريد قرارًا منها،وأن الخاتم فقط كي تتذكره خلال رحلتها كلما اشتاقت إليه.

حين سمعته فريدة بدأت ضربات قلبها تهدأ وانسحبت مخاوفها وتراجع قلقها. نظرت إليه وكأنها تقع في غرامه من جديد وطبعت على خده قبلة. قبلتها كانت بها معاني امتنان وشكر واعجاب وعشق كثير. رد ديفيد قبلتها بقبلة الذي يدري بالضبط ما هي خطوته التالية كي يفوز بأميرته وتصبح له ما تبقى لهما من عمر. قبل أن تذهب طلبت منه فريدة أن يحفظ لها خاتمها حتى يلتقيا المرة التالية.

***

كانت سيارة فريدة تقطع بها شوارع القاهرة في اتجاه فندق ديفيد في الوقت الذي كانت هيلاري في سيارة حازم تشق طريقها نحو بيت حازم حيث العشاء الذي طلبته على ضوء الشموع ينتظرها. حين بعثت رسالتها إلى حازم تطلب رؤياه، كانت قد أعدت نفسها لجميع الاحتمالات من ناحيته، بداية من عدم رده عليها من أساسه ونهاية بلقائهما معا وما يمكن أن يشمله ويضمه مثل هذا اللقاء بعد هذه السنين لمغرمين سابقين.

هيلاري كانت ترى حازمًا كشخص عاطفي شديد الرومانسية؛ لذلك كانت تدرك كم هوغائر الجرح الذي أصابه حين لملمت حاجياتها بعد حادثه وآثرت الانسحاب من علاقتهما. كانت تدرك أن رجولته لم تصب ولكنها مهما حاولت لم تر نفسها مجاورة لرجل قعيد ما تبقى من حياتها. كانت تحبه ولكنها أحبته على صورته التي عرفته عليها، قويا واقفا على قدميه، رجلا يشعرها بالأمن ويحميها. وأدركت أنها لا تحبه على مقعد متحرك ومن فئة غير الأصحاء. تحطم حلمها مع الضربة الموتورة التي أصابت حازم فقد كان مجسدا لكل أطماعها: وسيمًا صلد الجسد، ذا ثروة بالتأكيد تضمن لها حياة الرفاهية التي تمنتها منذ الصغر وأصبحت هدفا مؤكدا لها في اختيار شريك حياتها. لم يكن قرارها بالسهولة التي يظنها

البعض بل لعله كان صعبا للغاية وشديد التركيب والتعقيد.بل لعلها وهي تصل إلى هذا القرار رأت نفسها ترتقي إلى مرتبة من النبل لم تظنها بها، فقد كان أحد البدائل أن تظل بجانبه لتهنأ بثرائه ولكنها ترفعت على ذلك مفضلة الانسحاب. حينما تفكر هيلاري فيما فعلت، تجد أنها أصابت وتحلت بما أملاه عليها ضميرها،وأنه إذا كان لحازم أو أي أحد مأخذ عليها فقد يكون في كيف ومتى اختارت الانسحاب من حياته وطريقة خروجها التي كانت هروبا في ظلمة أكثر منها نهاية علاقة.

لذا لم يفاجئها رد حازم أنه مشتاق لرؤياها هو الآخر؛ أوحين دخلت غرفتها في الفندق بعد أن وصلت من المطار فوجدت أحلى باقة ورود حمراء في صدر الحجرة وتحتها علبة حين فتحتها وجدت سوارًا ذهبيًّا جميلًا به رسالة من حازم.

أعد الثواني حتى ألقاكِ على العشاء غدا.

لقد أدركت أن حازم بذكائه وحبه لها قد فهم أسبابها وعفا عن طريقتها وأنه مستعد لمعاودة اتصالهما. ولكنها لم تكن تدري أن حازمًا قد حلل الموقف كما يحلل أدق التقارير المالية في شركات البورصة وأنه قرر أن يستمر في معرفته بها مع تعريف أسس جديدة للعلاقة. بالنسبة له أصبح مدركا تماما أن هيلاري تعاود الاتصال به وتصل المقطوع لغرض أكيد سيعرفه في حينه، وحيث إن لها مصلحة تراها فقد حسب أنه كي يقضي هذه المصلحة لها لابد لها أن تؤجره أجرا، الباقي فقط أن يتفقا على

طريقة الدفع. وحين محَّص حازم الأمر أكثر وجد أن هيلاري لا يقف أمام طموحها ورغباتها شيء، بل وجد أنها شخصية مريحة جدا في التعامل فهي محددة الهدف جدا وهي من الذكاء بحيث تعرف أن هناك تكلفة وثمنا لابد من دفعه على طريق تحقيق الطموحات والأطماع.

اللقاء المزمع على ضوء الشموع الخافتة كان مثل مباراة الشطرنج بين شخصين شديدي الذكاء كل منهما يعرف بماذا يريد أن يفوز تحديدا في نهاية العشاء. المريح أن ما كان يريده كل منهما كان متاحًا ودون غصة من أيهما. فقط كانا يحتاجان إلى اعادة تعريف العلاقة وتحديد المتوقع من كليهما بعد أن ارتضيا بداخلهما أن لا يعلو سقف المأمول من كل منهما من الآخر، وأن تكون العلاقة بسيطة دون تعقيدات، وأنه لا إعطاء من طرف دون مقابل من الآخر.

مازال حازم معِدًّا لهيلاري السهرة كما أحبت فيه دائما: الموسيقى الحالمة التي تجعل ظل الشموع وكأنه يرقص على أنغامها، قائمة الطعام كل ما فيها مختار بعناية لا يضاهيها سوى اختياراته أنواع النبيذ الذي يرافق كل طبق، والبيت خال إلا منه وهو في انتظار وصول هيلاري الجميلة الفاتنة.

عندما رأت فريدة ديفيد في انتظارها لم تستطع أن تتمالك نفسها وأدركت كم اشتاقت إلى حضنه وهو يضمها إليه. ما أن جلسا إلى مائدتهما حتى بدأت استجوابه:

فريدة : أي مفاجأة ؟

ديفيد : أوحشتِني جدا فقررت أن أجيء لأراكِ.

فريدة (في سعادة بالرد) : الحقيقة يا ديفيد؟ ما سبب مجيئك ؟أنا أعرفك جيدا، بك مميزات كثيرة أعشقها ليس من بينها تحضير المفاجآت أوعملها.

ديفيد : فكرت فاكتشفت أن في لقائنا الأخير لم ننه حديثنا فجئت إلى القاهرة لأنهيه.

فريدة : ولكن لم يكن للحديث بقية يا ديفيد، لقد عرضت عليَّ ما يتمناه قلبي وتفهمت بحدسك ومعرفتك بي أن عقلي متردد فزدت كرمك بأن أعطيتني مساحة وفسحة كي أفكر وأجعل قلبي وعقلي على وفاق مضبوط يا حبيب قلبي، أم أني نسيت شيئا ؟

ديفيد : أتعلمين يا فريدة أنا هنا منذ يومين، مشيت في الشوارع وجبت أرجاء القاهرة دون دليل. أوَ تدرين؟ لقد أدركت أسباب حبك لها برغم كثرة ما يغطي وجهها. إن من ينبش سطحها واقع في غرامها لا محالة. قولي لي يا فريدة ألا تجدين أن موضوع الدين وتمسكك به وما يسببه لكِ من بلبلة في موضوع زواجنا، ألا تجدينه غريبا بعض الشيء لمن لها خلفيتك؟

فريدة : اسمع أنا أجده غاية في الغرابة. والأغرب إنني لم أكتشف هذا الأثر العميق لهذا الموضوع في شخصيتي إلا حين بدأ حوار زواجنا. لابد أنك في أشد الحيرة من بنت المسلم المهاجر والأمريكية المسيحية الملتزمة التي تربت على مبادئ الديانتين ولم تجبر من أهلها يوما على أن تمارس

أيهما. ولكني يا ديفيد مسلمة ومؤمنة بذلك، لعلي مسلمة عن اقتناع ولست مسلمة بالمولد كما يقولون. اسمع يا ديفيد قد أكون قد خالفت بعض تعاليم ديني في أحيان ولكني لا أستطيع أن أجد في نفسي حيدة عن تعاليمه في موضوع الزواج. أنا آسفة يا ديفيد، كان يجب أن أتوقف منذ البداية، ولكني أحببتك يوم رأيتك وتضاعف حبي لك عدة مرات. من يومها أنا أعرف أني ظلمتك حين جعلتني أنانيتي أستمر في علاقة لا نهاية منطقية لها لدي ولكن حبك كان قد ملكني.

ديفيد : ومن اشتكى لكِ يا فريدة، أنا أحبك، ومن يحب يذهب خلف حبيبه حتى نهاية العالم. أتعرفين يا فريدة حتى قابلتك كنت دائما الساخر من الرومانسية. كنت أرى روايات وأفلام الحب ضحكًا على الذقون، ولم أكن أصدق أن مثل هذه القصص موجودة في حياتنا التي نحياها. أنا لا أصدق ما أنا بصدد قوله ولكن حبي لك يا فريدة يجعلني شديد الرومانسية وسعيدًا جدًّا بخفقان قلبي مثل تلميذ المدرسة الواقع في الحب لأول مرة.

فريدة : حبيبي إن ما تقوله أجمل ما يمكن أن تسمعه امرأة، وأعذب ما يمكن أن تسمعه بنت من حبيبها. إنك تصعب عليَّ الأمور وتسهلها في آن واحد. ديفيد لا أستطيع أن أقول لك سوى أني أحبك؛أحبك دون شرط أو قيد؛ أحبك،أحبك.

ديفيد : إذن تزوجيني يا فريدة ودعينا نمضي حياتنا مع بعض كما ينبغي. دعينا نرعى هذا الحب ونزيده ونتمتع به بكل ما أوتينا، دعينا نشيخ سويا.

فريدة : هذا هو حلمي يا ديفيد وغاية مرادي. ولكننا أعقل وأكثر منطقية من أن تقودنا مشاعرنا فقط دون تحكيم عقولنا.لا أريد أن نختلف يوما فتؤذي خلافاتنا حبنا الجميل الذي نتغنى به الآن.

ديفيد : ماذا تخشين ؟ ألا تقولون عندكم : لكم دينكم ولي دين؟ ثم ألا تقولون عندكم: إننا أولاد عم وإنكم تؤمنون وتجلُّون كل أنبيائنا ؟ إذن أين هي المشكلة. أتخافين على أولادنا وأي دين سيتبعون ؟ لنأخذ أباك وأمك مثالًا : لقد علماك أحسن ما في دين كل منهما وتركا لكِ الاختيار. وإذا كانت الأولاد هي صلب مشكلتك، فعندنا في اليهودية الأولاد على دين أمهاتهن. أنا موافق يا فريدة ومن الآن على أن تربي أولادنا على الإسلام.

فريدة : ديفيد أنت تكلمني وكأني عضوة في خلية أصولية متطرفة، أنا مجرد مسلمة عادية، أخطيء أحيانا وأحاول بقدر ما يمكن أن أحسن ديني. أنا غير منتظمة في صلاتي ومازال أمامي الكثير كي أُصبح المسلمة التي أتمناها. ولكن حكم زواجي منك واضح وصريح فهو محرم وأنا لست بالأنانية كي أطلب منك ترك ما تعتقده من أجلي لأني لن أترك ما أعتقد من أجلك. أحبك بكل جوارحي ولكني لن أغضب الله يا ديفيد في أمر صريح منه.

ديفيد : إن تمسكك بقناعاتك ومبادئك جزء مهم مما أحب فيك. أنا أحبك كلك يا فريدة، أحبك ومقتنع أن سعادتي معك وهذا الحب وهذه

القناعة يجعلاني مستعدًّا لأن أفعل أي شيء كي تكوني لي وأكون لكِ. هذه المرة لن أعطيك خاتما فقط، خذي حبيبتي.

مد ديفيد يده لفريدة فوجدته يقدم لها الخاتم الذي لم تأخذه منه في نيويورك ومعه مظروف أبيض. أمسكت المظروف وهي لا تدري ما به وهي تقلبه وجدته معنونًا:

إلى حبيبة قلبي، أهديك نفسي .

فتحت فريدة الظرف وأخرجت ما فيه، دمعت وهي تمسك بيديها شهادة إشهار إسلام ديفيد مختومة من الأزهر.

***

لم يتغير حازم ولا ذوقه، هذا ما سيطر على ذهن هيلاري، مازال هو الشخص النابض بالحياة العارف والخبير بكل ما هو ممتع وثمين.

لقد أعد لها العشاء كما أحبته دائما،وحين تحدثا لم يشعرها للحظة أن به غصة من ناحيتها بل أشعرها أنهما افترقا فترة مؤقتة وعادا ليتقابلا وكأن كل الأحداث بين لقائهما الأخير والحالي كانت من وحي الخيال.

لم تحتج هيلاري كثيرا من الوقت لتصبح في حالة راحة واسترخاء شديدتين. قربها حازم إليه وأزال أي حواجز تصورت أن تكون موجودة. بسرعتها المعهودة تطرقت إلى سبب زيارتها إلى القاهرة وما تريد منه.

لقد تولت منصبا جديدا ومهما في إحدى شركات وول ستريت وإحدى مهامها بعد انهيار أسواق أمريكا أن تحصل على عملاء من بلاد أخرى مستعدين لاستثمار أموالهم مع شركتها. كما شرحت له هيلاري أنه حين بدأت تبحث عمن يستطيع معاونتها ظل اسمه مسيطرا على تفكيرها. دون خجل قالت له إنها تريد أن تعود من رحلتها هذه بحصيلة استثمارات لشركتها لا تقل عن خمسة ملايين دولار.

صدق حدس حازم ولم تخل هيلاري بتوقعاته، فقد راهن عليها وأنها لابد أنها قادمة إليه طالبة معاونة في أن يقدمها إلى معارفه. لم يحزنه أو

يدهشه طلبها ولم يره نوعًا من الاستغلال فقد كان منذ أمد قد نقلها من مكانة الحبيبة إلى مكانة معرفة المصالح.

طمأنها حازم بأن ما تطلبه بسيط وأنه سيساعدها بأن تحصل على أكثر بكثير مما وضعته كهدف لهذه الزيارة. مبدئيا وهي أمامه اتصل بياسمين وطلب منها أن تقابل هيلاري وأن تستمع إليها وأن تثق فيها وتجرب استثمار بعض أموالها معها. ابتسم حازم وهيلاري تقبله على وجنتيه وتنتقل إلى شفتيه وهي جالسة فوق رجليه. مازالت قبلتها لا تقارن ولا تقاوم، ومازالت شديدة الأنوثة والنعومة.

قضى حازم الليلة الجميلة التي منى بها نفسه مع هيلاري، أجمل وأرق من عرف. ولكنه هذه المرة أخذها دون أن يكون غارقا في الحب، أخذها متعة فقط ودون تفكير فيما بعد ليلتهما. وهيلاري أعطته وأخذت منه من أجل المتعة ومن أجل ذكريات باقية بداخلها وهي الأخرى لم تفكر لحظة فيما يلي بل كان كل تركيزها في إشباع رغبتهما وشبقهما.

حين استيقظ حازم في الصباح ابتسم حين وجد هيلاري بجانبه في سريره. فكر لحظة ثم اتصل من هاتفه :

صباح الخير يا شريف، عندي لك هدية.

أفاقت هيلاري على حازم يحضنها ويقبلها ويمتعها ويتمتع بها. بعد إفطارهما سويا غادرت هيلاري إلى فندقها، في حين بدأ حازم الاستعداد لبدء يومه.حين خرج من باب شقته غيَّر وجهته بعد أن فتح باب المصعد إلى شقة نادية المجاورة لمنزله بنفس الدور.

عندما خرجت نادية لمقابلته كانت كالعادة تشع حبًّا وسعادة لوجوده. حازم من يوم مولده وهو قرة العين ومحتل القلب دون شريك. وجوده يجعلها في حالة استرخاء وهدوء وسعادة.لم يكن مجرد الابن بل تحول إلى الصديق وأحيانا الأخ بل لا نبالغ إذا قلنا إنه وصل في أوقات أن يكون الأب. حازم هو الآخر كانت أمه أهم ما بحياته، خاصة بعد حادثته، كانت أقرب إنسان له في حياته؛ كانت تلفه بحبها له وتغطيه بدفء مشاعرها نحوه. كثيرا ما حسدوهما على علاقتهما ببعضهما، ونالهما ما نالهما من سخرية الآخرين على مدى قربهما.

ولكن حازم اليوم كان آتيا وهو يعلم أن ما سيخبر أمه به لابد أنه فاطر قلبها. ولكنه وصل إلى قراره بعد طول تفكير وتمحيص عميق. السنون تجري وهو يشعر أن الزمن متوقف به. لم ير في نفسه تطورًا أوتقدمًا يرجوه منذ عاد إلى مصر. وجد نفسه يعامل كمعوق، معاملة وتوصيفًا، سلبياتهما أكثر من إيجابياتهما. ظلم وجور متستر خلف واجهة رحيمة وكأن البلد وأهلها يريدون أن يتأكدوا أن المعوق يعرف أنه ليس صحيحًا وأنه لا أمل له في أن يحقق حلمه في حياة طبيعية مع أهمية التأكد أن لا ينسى وضعه وحدودياته. سلبيات تخطتها بلاد أخرى منذ أجيال وتفوقت في تحويل كل سلبيه إلى إيجابية. بلاد جهزت نفسها لمعوقيها وخططت لأن يذوبوا – دون تمييز – وسط مجتمعاتها. بلاد لم تعد الإعاقة نقطة ضعف بل نقطة انطلاق وتفوق.

نظر حازم إلى نادية، كم هي جميلة أمه؛ جميلة قلبا وقالبا، ليس تحيزا، بل هو اتفاق بين كل من يعرفها. مازال ينظر إليها نظرات ملآنة بالحب والولع، وإن لم يطل تفكيرا فهو متأكد أنها ستحب ما فيه خيره وسعادته. حينذاك سمع صوته وهو يقول لها :

سأرجع أمريكا يا ماما.

***

الفصل الثامن

إقناع واقتناع

كان واهما ديفيد حين ظن أن ختم الأزهر كان ضمان النهاية السعيدة في موضوع زواجه من فريدة. اكتشف أنه مازالَ أمامه الاختبار الأصعب؛ مقابلة الجدة. ما استغربه ديفيد الأكثر كان نفسه: ما هذا الانجذاب الهائل الذي جعله كالطفل الصغير الراغب في لعبة. نعم هي فتاة جميلة ومميزة، طيبة وحنونة ومليئة بصفات رائعة ولكن هذه سمات أغلب من عرفهن منذ أيام المدرسة. كانت وكأنها سحرته من يوم رآها؛ من هذا اليوم وهي من يريد أن يركن إلى صدرها يوم يأخذ آخر أنفاسه في هذه الحياة. هل أسرته شرقيتها الممزوجة بحداثة أمريكا؟ هل دماء أجداده الذين تنبع جذورهم من الشرق هي التي تدفعه دفعا هكذا؟ أم هو حبه للتحدي وتخطى الصعوبة التي تواجهه في الاستحواذ على من غزت قلبه؟ ضحك في داخله وهو يتذكر ما علموه له في المعبد أن أجداده الأوائل هم ملاك الأرض التي تأتي منها فريدته وأنهم في الآخر عائدون؛ لعله بادئ رحلة الرجوع! ولكنه في حالة عشق وغرام لا حالة استعمار وغزو. فليكن إذًا، كما كسب قلب فريدة سيفوز بقلب الجدة.

صدمة الجدة كانت مقننة : نعم لطالما تمنت لحفيدتها أن تتزوج من مصري ولكنها أمنية تضاءلت بل تلاشت مع الوقت. رويدا رويدا أدركت أن حلمها شبه مستحيل، فكيف لمن تربت وترعرعت في أمريكا أن تقترن بمن نشأ في أجواء مغايرة بل أنى لها أن تقابله أصلا؟ ولكن يهودي يا

فريدة!! سنقبل الأجنبي.. ولكن يهودي!! أنا لا أراهم سوى أعداء لنا نحاربهم وهم مقاتلونا أو آسرون أقاربنا وأبناءَنا وأصدقاءَنا. كم من شهيد وجريح قتلوه وأصابوه، نعرفهم والكل حاربهم يوما أو آخر. لا دخل لي ولا أفرق بين إسرائيل واليهود؛ بالنسبة لي هم العدو. حتى تاريخيا هم من أرهقوا سيدنا محمد بخبثهم ومداهنتهم. لقد عارضت وقاومت أباك يوم أراد أن يتزوج مارجو لأنها كانت ستأخذه إلى بلادها ولن يرجع، ويظل ابني مهاجرا، لم يكن دينها موضوعي. وعسى أن تكرهوا شيئا... فقد أثبتت أمك أنها أفضل من ناسبته العائلة بطيبتها وحسن معشرها. أفكار الجدة لم تتوقف وإن أدركت أنها سيكون عليها القبول والمباركة في أي حال، فقد أنهى ديفيد الذرائع بإشهار إسلامه. ستقبله ولكنها أكيد لن تحبه.

عندما وصل ديفيد إلى بيت الأسرة كانت الفرحة تنضح من وجه فريدة. أي حب من الممكن أن تطلب وقد أهداها نفسه كما كتب على ورقة إشهار إسلامه؟ كانت متشوقة إلى رأي جدتها فيه وإن كانت واثقة أنها ستغرم به وأنه بلا شك سينال رضاها.

لقاء الغريمين بدأ وانتهى بابتسامات تخفي ما في القلوب. تخلله حديث بدأ وديًّا وإن حمل في طياته كثيرًا من المعاني.

الجدة: أنا مصابة دائما في فرع يوسف من العائلة، لن يعيشوا أبدا بجواري .

ديفيد: ولكنك دائما في قلوبهم، ولعلي أطمع أن تضيفيني إلى قائمة من يحبونك.

الجدة: سأحب دائما من يحبه يوسف وفريدة وضف إليهم مارجو ابنتي الأمريكية. قل لي يا ديفيد ألم يكن بإمكانك أن تسهل لي حياتي وتجد لك فتاة أمريكية أخرى؟

قالتها مازحة وهي تعنيها. سكت للحظة قبل أن يرد قائلا :

وهل توجد في العالم من تضاهي فريدة؟ أنا أحبها كما لم أحب أبدا وأريد أن أمضي أيامي في إسعادها.

الجدة: وهي تحبك فأرجو أن تحافظ عليها. فريدة غالية عندنا جدا ونحن بصدد إعطائك أثمن ما نملك. في عالمكم تجيء مرحلة تقررون أن أولادكم كبروا وتتركونهم يأخذون زمام أمورهم، عندنا هم صغارنا حتى حين نشيخ ويتولوننا برعايتهم؛ هم مسئوليتنا حتى نموت. عموما أنا أقدر ما أقدمت عليه وأنك أكيد لم تفعله بغرض الاستحواذ على ما استعصى عليك.

من أجلك ولأول مرة سأحاول أن أفرق بين ما هو يهودي وإسرائيلي، وأيضا من أجل فريدة. سأنسى ما عشت عمري لا أقبله لأن حفيدتي المفضلة أملت عليَّ هذا. أهلا بك في العائلة يا ديفيد؛ أرجوك حافظ على فريدتنا.

قبول الجدة كان إذعانا لأنها كانت تعرف أن رفضها لن يغير في الأمور أمورًا. مباركتها أفرحت فريدة وإن لم يقتنع بها ديفيد.

***

لم يكن خافيا على نادية الموضوع الذي يريد فهمي أن يتحدث معها بشأنه : قرارها بالطلاق من مجدي. كانت تدرك تماما ماهية مداخله : كيف أنها منساقة وراء العاطفة وأنها ستخسر أكثر مما تكسب من جراء موقفها. كانت تعرف أن حساباته ستكون مادية، وكانت تعرف أنها بالحسابات المادية خاسرة لا محالة، ولكنها لم تكن مستعدة للتسامح في الجرح الذي أصابها مهما بلغت الخسائر، ثم إنها حتى بعد الخسارة مازالت ضامنة حياة مليئة بالثراء بل هي ضامنة ألا تنزل ولو نصف درجة عما اعتادت عليه. ولذا كانت مستعدة لفهمي؛ لن تتنازل عن موقفها ولا يوجد ما يمكن أن يقوله لها ليقنعها بتغيير موقفها.

كانا قد اتفقا على اللقاء عند أمهما، هي ارتاحت لوجود أمها لأنها كامرأة ستدرك مدى جرحها، وفهمي رأى في وجود أمه عاملا مساعدًا للضغط على نادية في الرجوع إلى ما يراه صوابا والاستماع إلى صوت العقل.

عندما وصل فهمي، لم يضع وقتا في مقدمات بل دخل في صلب الموضوع مباشرة.

فهمي : ما هذا القرار الغريب يا نادية، لم أتعود منك تأخذين قرارات انفعالية بهذه الطريقة؟

نادية : تصور يا فهمي وصدقني أني لم أنفعل حتى الآن، بل بالعكس أنا في منتهى الهدوء. أنا أخذت القرار الوحيد الممكن أن آخذه في موقف كالذي وجدت نفسي فيه.

فهمي : أخذت قرارًا ضد من لا يملك لنفسه دفاعا. أخذت قرارا ضد من هو أقرب للموت منه للحياة. أي قرار هذا ؟

نادية : أخذت قرارًا ضد من خان وضد من لن يدفع ثمن خيانته.

فهمي: أي خيانة يا نادية ؟! الرجل لم يفعل حراما بل هو حلاله، ثم إني لم أتعودك حالمة أو غير عملية، هل يوجد رجل بلا نزوات، اسألي أمك، حتى أبوك كان له نزواته.

الجدة : فهمي لا تدخل أباك في الموضوع، نعم هناك كثير بل أغلبية من الرجال بلا نزوات. لا تحكم على الجميع بما أنت فاعله.

نادية : أي حلال يا فهمي، الحلال أن أعيش مخدوعة؟ الحلال أن يجعلني أتصور أني الوحيدة في حياته وهو يعيش حياة موازية بكاملها وبجميع مشتملاتها وأنا كالأطرش في الزفة ! الحلال الحقيقي والرجولة الصحيحة أن يواجهني ويعطيني حرية القبول أو الرفض.

فهمي : هذا حلال قوانين هذا الزمن يا نادية. اسمعي لن أتعمق فيما هو شرعي فهذا ليس ما أنا هنا لمناقشته، سأناقشك فيما هو إنساني وما هو مقبول بعد عشرتك وحياتك معه.

نادية : إن أكثر ما يؤلمني هو عشرتي وحياتي معه.لم أقصر معه يوما حتى يكون هذا جزائي.بالعكس رعيته ورعيت بيته وربيت أولاده وكنت أحسن ما أستطيع كزوجة له.

فهمي : يا نادية أنتِ رعيتِ بيتكِ ورعيتِ أولادكِ. هل أصبحوا الآن بيته وأولاده وكأنكِ أجيرة ترعاهم. اسمعي يا نادية دعيني أواجهك :أنتِ لم تحسني الأداء كما تظنين، فالرجل لن يبحث عن بدائل إذا وجد ما يريد في بيته، صدقيني هذا ليس دفاعا عنه ولكنها الحقيقة.

نادية : أتقول إنني سبب فعلته ؟ شيء مضحك بجد، وليكن يا سيدي أنا السبب وبما أنني مذنبة سأقطع ما يربطني به عقابا لي على فعلتي وتقصيري عبر السنين.

فهمي : لم أقل إنك أخطأتِ ولكني سأقول إنك لم تعطه الأولوية التي يحتاجها كل رجل. أولادك أصبحوا أهم منه على طول الخط.نعم أنت كنت المرأة الجميلة المشرفة له، لكنك المرأة الجميلة المشرفة له في المجتمعات وأمام الناس، بينك وبينه أنت الرتيبة المتوقعة، المتعبة المطحونة التي تريد الليلة أن تمضي أو تريد أن تناقش ما يريده ويحتاجه الأولاد.قولي لي يا نادية متى آخر مرة سألتِه عما يريده هو أو عما حقا يتوق إليه ؟

نادية : ومتى آخر مرة سألني هو عما أريد أوعما يمكن أن يريحني؟ هل عدم سؤاله دفعني إلى علاقة أخرى تحقق لي أحلامي ورغباتي؟ فهمي أرجوك يبدو أنك هنا لتدافع عن نفسك لا عن مجدي.

فهمي : أدافع عن نفسي ؟ أدافع عن ماذا؟ أنا لست طرفًا في الموضوع هنا. ماذا تستفيدين من طلاقك من رجل لن يعرف أنك طليقته أصلا ؟هل فكرت وأنتِ تتخذين قرارك الأناني في أولادك الذين طالما ادعيتِ أنهم دوافعك دون غيرهم ؟ من سيستفيد من قرارك بل من سيعرفه ومن سيأخذ منه العظة؟

نادية : أنا لا أريد عظة لأحد. وأولادي لن يتأثروا بشيء.

فهمي : كيف لن يتأثروا بشيء؟! أم لأن أباهم لن يدري؟ هل هذا هو القرار الشجاع الذي أخذتِه ؟ اسمعي يا نادية حتى أمام الناس، الأغلبية لن تفهم أسبابك ولا منطقك، سيقولون إنك إما مجنونة أو غاية في النذالة أن تتركيه وهو فيما هو فيه لإثبات موقف.

نادية : لندع للزوجة الثانية شرف خدمته حتى النهاية سأعطيها الفرصة لتكون هي الشهمة التي تقف بجانبه في ظروفه الحالكة. أنا أخذت البداية فمن العدل أن تكون لها النهاية.

فهمي : لا توجد زوجة ثانية يا نادية.الموضوع انتهى قبضت ثمن أيامها معه ورحلت. لم يكن هناك يومًا زوجة ثانية من الأساس، كانت متعة يقضيها وراحت لحالها. لقد كانت هناك دائما زوجة واحدة لمجدي هي أنتِ يا نادية.

نادية : يا ليت يا فهمي لم تكن هناك زوجة ثانية يوما.ليتها كانت مجرد قابضة لثمن المتعة دون زواج.ليته لم يخطئ في رفعها إلى مرتبتي، كانت المصيبة تهون.

فهمي : أتسمعين ما تقولين؟ يعني لو كانت علاقة مبنية على الحرام كنتِ قبلتِها وارتضيتِ له أن يقابل ربه وهو مذنب. أنتن تفضلن أن يخطئ الرجل في حق ربه على أن يخطئ في حقكن! أي نفاق هذا ؟

أسقط في يد نادية فلم تجد ردا، صمتت فأنقذها تدخل أمها.

الجدة : اسمع يا فهمي، مجدي أخطأ في حق نادية وهي لم تفعل له يوما ما تستحق بسببه هذه النهاية، وهذا الجرح وما فعله يبدو نظريا، حلالًا ولكنه فعليا غير مقبول وغير مستساغ. نادية،القرار قرارك ولكن يا بنتي أنتِ عشت معه بما يرضي الله، تذكري هذا دائما وأنهي حياتك معه بما يرضي الله. أنهي حياتك معه كما ربيتك، أنت تعرفين أصول المعاملة وتتحلين بأخلاق بنات الأصول.خذي القرار الذي يريحك ويريح ضميرك أنت. لن يتأثر أولادك،والناس ستقول ما تقول ثم ينسون لأنهم سيجدون موضوعًا آخر يتسلون به. عاملي الله وتذكري تربيتك وأصلك وخذي قرارك على هذه الأسس.

يا فهمي، اترك نادية لحالها، سيهديها ربها وقلبها إلى ما فيه الصواب وأيا كان قرارها سنقف وراءها فيه وننفذ رغبتها كلنا وأنت أولنا.

***

كلمات فريدة ترن في أذن هبة منذ حديثهن : يوجد صحيحان يجب أن تختار بينهما في الموقف الذي هي فيه. وازَنتْ وفكرت يوما بعد يوم ودائما تصل إلى الأصح: حبها لمروان لا يمكن ولا يجب أن يكون. هو أجمل وأسعد ما مرت به ولكنه جاء في غير توقيته، جاء بعدما تشكلت حياة كل منهما وبعد أن أصبح أي قرار يمس آخرين لا يستحقوا أن يتأذوا. وإن كان حبها له هو شعور جميل ستفتقده، ولا تدري إذا كانت يوما ستنساه، ولكنها وصلت إلى قناعة أنها لابد أن تضحي من أجل سعادة أولادها وابنه. ومن أجل راحته وراحتها لأن أي قرار آخر سيكون فيه قلب لحياتهم رأسا على عقب.

لابد أن تكون قوية وتنفذ قرارها. هي واثقة أنه سيبديها على نفسه وسيساعدها في تنفيذ ما توصلت إليه؛ لأنها متأكدة أنه يحبها وأن حبه لها سيجعله يدوس على قلبه من أجلها. كانا قد اتفقا على اللقاء في هذا اليوم. أخيرا قبلت هبة أن يتقابلا في شقة مروان الخاصة، وعدها ألا يفعلا أي شيء خطأ يندمان عليه. لم يكن يدري أنها ذاهبة لتقول له إنه آخر لقاء لهما معا، أو إن حبهما سينسحب ويختبئ في قلبيهما دون أمل أورجاء. ستكون قوية وسيكون هو رجلها الذي يساندها في أصعب قرارات حياتها.

***

ما إن جلست هيلاري في صالون منزل شريف وياسمين حتى أخذت تراجع المعلومات والنصائح التي أعطاها إليها حازم. لقد فعلت كل ما قاله لها، طلبت مقابلة ياسمين وحدها دون شريف، وها هي في انتظارها هل ستقابلها ياسمين وحدها أم يصدق توقع حازم في أن ملك ستحضر لقاءهما ؟ وصفه لعلاقة ملك وياسمين لم يترك الكثير لخيال هيلاري، فقد أدركت الأمريكية طبيعة العلاقة وأعدت خطتها للاستفادة القصوى منها. هكذا درست وتعلمت، كل شيء قابل للاستغلال الإيجابي، وهي مهمتها في الآخر الوصول بالعميل إلى المنطقة التي يجد فيها راحته ويصبح على سجيته. إذا كان وصف حازم أو شكوكه في علاقتهن صحيحًا، فستصبح هيلاري هي ملاذهما من القيود التي تفرضها عليهما مصر. نعم فالاستثمار والعمليات الاقتصادية ما هي إلا ترجمة واستغلال لحالات اجتماعية وكلما شذت الحالة الاجتماعية كلما زاد ربح الاستغلال.

دخول ياسمين ومعها ملك التي لم تحتج إلى تقديم جعل هيلاري أكثر ثقة في إمكانيات النجاح.

ياسمين : أهلا بكِ يا هيلاري. حازم قال لي أن استمع إليك جيدا لأن لديك جديدًا ومفيدًا تطرحينه عليَّ، وأنا دائما أثق فيما يقوله حازم لأني أعرف مدى ذكائه أو لنقل مدى عبقريته.

هيلاري : كلنا نثق في عبقرية حازم وأنا أثق أكثر في أن نصيحته دائما خالصة دون غرض. وأنا فعلا سأطرح عليكِ ما لن تستطيعي أن ترفضيه.

الموضوع ببساطة أن شركتي تعمل في جميع البورصات والأسواق المالية العالمية. نحن نخدم مجموعة شديدة الانتقاء من الناس في العالم ونعطيهم خدمة مميزة حتى يكاد العميل يشعر أنه عميلنا الأوحد، وفي الوقت نفسه نتائجنا ونجاحاتنا في السنوات الخمس الأخيرة وحدها يجعلنا الأفضل فيما نفعله دون منافسة.إن العائد على استثمارات عملائنا يصل إلى ضعف عوائد البنوك.

ياسمين : ولكننا هنا وفي بلدنا عوائدنا مرتفعة جدا ونحن نعرف ونملك أسواقنا، فلم نجازف وندخل في أسواق لا نعرفها ولا ندري بدواخلها وديناميكيتها ؟

فوجئت هيلاري بأن ياسمين ليست فقط وجها جميلا، وإنما لديها حدس اقتصادي، ولكنها لم تجعل المفاجاة توقف الزحف الذي بدأته.

هيلاري : أولا : اعتبري استثماراتك خارج سوقك نوعًا من التأمين ضد التقلبات التي قد تحدث لهذه السوق.ثانيا : أوافقك أن أرباحك هنا احتكارية ولكن يقابلها في الوقت نفسه عدم استقرار، وهذه شيمة الأسواق الناشئة؛ لذلك وجب تجنيب استثمارات في أسواق أكثر أمانا واستقرارا. ثالثا : تخوفك من عدم الدراية بالأسواق الأخرى هو سبب وجود شركات مثل شركتنا بخبراتها ومعرفتها اللتين يضمنان لك العوائد والأرباح المرجوة. لقد حدثتك عن نتائج سنوات خمس من أصل تواجد لشركة

يمتد لأكثر من خمسين عاما،لم يكن بينها سنة خاسرة، بل لم يكن بها سنة لم تزد أرباحها على السنة التي قبلها.

هنا تدخلت ملك قائلة : ولكن مثل هذه الشركات منها الكثير فلماذا شركتك دون غيرها ؟

سُرَّتْ هيلاري بتدخل ملك، فقد كان هذا هو الضوء الأخضر لبداية الجزء الثاني من خطتها.

هيلاري : نعم يوجد لنا منافسون وإن كنا الأفضل. ولكن سأقول لك أهم سبب لاختيارنا وهو سبب دائما ما يفهمه أهل الشرق الأوسط بالذات؛ أن في شركتنا لديك من اليوم صديقة هي أنا، شخص تعدى اختبار الثقة بشهادة حازم. ثانيا شركتنا لا تضمن السرية فقط ولكنها أيضا تضمن طرق التصرف المستقبلية.

ياسمين: وماذا تقصدين بهذا؟

هيلاري : أقصد أنه من الممكن أن تعطينا تعليمات خاصة فيمن يستفيد من استثماراتك، أو من يشارك فيها. وتستطيعين إعطاء تعليماتك في هذا الصدد دون وجود صلات دم أونسب كما تطلب بنوك وشركات أخرى.. بمعنى أنه كما قلت تأمين لك ولمن تحبين أو تختارين.

نظرات ياسمين وملك لبعضهما غدت حاملة معاني كثيرة .

استمرت هيلاري قائلة:

إننا كبلد ومجتمع تقدمي وصلنا إلى تفهم وقبول لجميع أنواع العلاقات. العالم يستغرب حين تترك مليونيرة عندنا ثروتها إلى قطتها وجمعيات رعاية القطط ولكننا نتفهم أنها رأت في القطط وفاء لم تجده في إنسان. وكذلك

نفهم حين يريد المرء أن يشرك صديق عمره في ثروته وأن يؤمنه من غدر الزمان، أوحين تريد صديقتان وضع أموالهما معا في استثمار يستغلانه متى حان الأوان. تصورا يومًا تقرران فيه أنتما الاثنتان الاكتفاء من مصر وتريدان التمتع بحياة هادئة في أمريكا. لن تحتاجا أن تضيعا الوقت في تسييل ما تملكان في مصر فتؤجلا ما خططتما له أو تؤجلا متعتكما ولو دقيقة، أتدريان لماذا ؟ لأن استثماركما الذي بدأتماه اليوم بأرباحه في انتظاركما دون أي عناء منكما. كل هذا دون تفحص لأسبابكما أو أغراضكما بل على العكس بقبول وتقبل كامل لطبيعة علاقتكما.

حين أنهت هيلاري جملتها أدركت أن مقاومة ياسمين وملك قد انتهت وأن المتبقي فقط هو تحديد المبلغ الذي يريدان استثماره. لم يأخذا وقتا طويلا في التشاور قبل أن تعدها ياسمين بتحويل خمسة ملايين دولار كبداية، مؤكدة على هيلاري أن يكون التعاقد والاستثمار باسمها واسم ملك مجتمعتين. وبالقبول والتقبل الذي وعدتهما به. هيلاري أكدت لهما أن كل طلباتهما مجابة.

***

هبة وقفت لحظة أمام باب شقة مروان. قلبها يخفق بقوة وسرعة، الدم يجري في عروقها فتكاد تسمع صوت تدفقه. ذكرت نفسها بما جاءت تفعله، وأكدت على نفسها حاجتها لأن تكون قوية وثقتها في مساندة مروان لقرارها. ستقول له إن حبه يملأ قلبها ولكنها لا تستطيع أن تكون خائنة وأنه لا يقبل لها الخيانة، وأن حبهما أرقى من أن تشوبه شائبة أو أن يشوهه فعل خطأ.

استجمعت قواها وطرقت الباب ففتح مروان وكأنه واقف منذ أمد منتظرا إياها خلف الباب. دخلت وأغلقا الباب، نظرا إلى بعضهما وفي لحظة كانت في حضنه. داهمتها مشاعر لم تكن تدرك أنها قابلة للوجود أو أن مجرد حضن ممكن أن يثيرها. أحست أنها ولدت لتكون في حضنه، وأن هذا الدفء طبيعي ولا خطأ فيه. حين لامست شفتاه شفتيها أحست أنها أول وآخر قبلة في حياتها، مرة أخرى شعرت أنها خلقت له. كل حركة ولمسة بعد ذلك كانت تولد مشاعر قرأت عن بعضها في الكتب ومعظمها لم تكن تعرف أصلا أنه من الممكن الشعور بها.

أحست أنها امرأة لأول مرة، امرأة كاملة في يد رجلها، رجلها وحدها دون غيره، بل أحست أنهما في عالمهما وحدهما، عالم يلفهما وهما

مركزه ومحيطه. تدفق المشاعر لم يتوقف لحظة، كانت تحاول وقف هذا السيل الجميل من الأحاسيس، ولكن كيف تمتنع عن النهل من تلك السعادة؟ حاولت وحاولت أن تفعل ما جاءت من أجله ولكنها وجدت نفسها تغوص وتذوب أكثر وأكثر، حاولت أن تجد رادعًا ولكنها حتى لم تجد ما يؤنب ضميرها. كيف يكون الخطأ صحيحا لهذه الدرجة وكيف يكون طبيعيا ودون ألم هكذا؟ بعد حين قررت أن تتوقف عن المقاومة وأن تذوب في حبه وأن تذيبه في حبها.

***

هيلاري : شريف، أنا هيلاري، حازم اتصل بك بخصوصي.

شريف : أهلا هيلاري، حازم كلمني عنك وأوصاني بك كثيرا. لنتقابل على العشاء، سأمر لأخذك حوالي الساعة السابعة مساء .

هيلاري : جميل، سأكون جاهزة.

فاجأها شريف بقوله : أحضري جواز سفرك معك .

تلعثمت وهي ترد ساخرة : هل المطعم محتاج تأشيرة ؟

شريف : سأفاجئك، سأراك في السابعة.

في تمام السابعة مر شريف على هيلاري، جلست بجانبه في السيارة ودار بينهما حديث ودي ما لبث أن قطعه وصولهما إلى المطار، نظرت إليه في استغراب متسائلة .

ابتسم شريف وهو يقول : هناك مطعم أحبه في بيروت ففكرت أن نأخذ طائرتي الخاصة نأكل هناك ونعود. ساعة طيران ذهاب وأخرى عودة وعشاء جميل، ما رأيك ؟

هيلاري : أنا أعشق أمثالك من الرجال؛ سأرشح نفسي رئيسة لنادي معجباتك!!

ابتسم شريف لنفسه وهو يدرك أن ليلته لن تمر دون أن ينال مراده. في عقله اقتنع بأن حازم كان على حق حين قال له إن هيلاري هدية.

طائرة خاصة، استقبال حافل في بيروت، سيارة فارهة تمخر شوارع المدينة إلى المطعم الذي استقبلهم صاحبه على بابه. حديث عن العمل والاستثمار وإنهاء للصفقة في دقائق وامتد حديث ممتع بين اثنين وجدا بعضهما. عودة إلى الطائرة لم يستطيعا أن يكفا عن بعضهما فيها، فأصبح لكل منهما قصة يحكيها لأصدقائه عن تجربة مميزة مملوءة شبقًا ومتعة على ارتفاع الآف الأقدام.

حين وصلت هيلاري إلى فندقها في القاهرة، أرسلت رسالة إلى مديريها أنها استطاعت تحقيق ضعف المستهدف من الاستثمارات من مصر. قبل أن تنام أرسلت رسالة إلى حازم على محموله:

لا أعرف كيف أشكرك.

قبل أن تغمض عينيها، جاء صوت وصول رسالة على محمولها؛ رد حازم على رسالتها:

سأجد طريقة لتشكريني .

◆

الفصل التاسع

هنا سأظل وأكون

الاسم : فاطمة جيمس أندرسون.

الديانة : مسلمة.

نظرة فريدة ومارجو منعت يوسف من الاعتراض على ملء فريدة استمارات دخول مارجو المستشفى من واقع جواز سفرها المصري لا الأمريكي. نظرتهما إليه جعلته يبتلع استغرابه ويعلم أنهما يعرفان ما هما بصدد عمله. هل قررت مارجو أخيرا أنها مسلمة ؟ هل قررت قرب النهاية أن تمحي سنوات ذهابها إلى الكنيسة وإخلاصها في خدمتها؟ ولكنه عرف أيضا أن هذا ليس وقت السؤال أو المناقشة. تأكد من إصرارها الهادئ ودون حاجة لكلمات أنها رغبتها الأكيدة وأنه قرار لن تُجدي مناقشته أو محاولة إثنائها عنه.

بعدما استقرت مارجو في غرفتها بالمستشفى بدأ الأطباء سلسلة فحوصاتهم لها: أشعة وتحاليل وتقارير. أطباء من تخصصات مختلفة تبادلوا زيارتها وفحصها، كلهم أساتذة وأسماء لامعة، فهي مريضة مهمة والتوصيات عليها كثيرة. بعد يوم طويل جاء كبيرهم وفحصها سريعا قبل أن يومئ ليوسف وفريدة أن يتبعاه إلى خارج الغرفة. تجمعوا ثلاثتهم في الردهة أمام غرفتها، بدا وكأنه لا يدري كيف يبدأ كلامه فأسعفته فريدة حين قالت :

يا دكتور نحن نعرف أن حالتها ميئوس منها. أطباؤها في أمريكا لم يتركوا لنا أولها أملا بل صارحونا أن حياتها لن تتعدى شهورًا.

وكأن كلمات فريدة فكت عقدة لسانه، وأعادت إليه أيام تعليمه في أمريكا فتخلى عن العواطف وهو يرد عليها :

الحقيقة أن الأشهر التي توقعوها قد اختصرت لتصبح أيامًا.ما نستطيعه لها في الأيام القليلة القادمة هو تخفيف آلامها حتى يسري أمر الله ويرحمها ويكرمها.

لم يعد هناك ما يقال بعد كلمات الطبيب،يوسف وفريدة لم ينهارا فهما يبكيان فراق مارجو من يوم أخبرهم أطباء في بلدها قِصَرَ المدة التي تبقت لها في دنيانا. كل محاولتهما ومجهودهما تركز في أن تكون ابتسامتهما وحبهما لها هي فقط ما تراه وتشعر به قبل أن تفارقهما بلا رجعة.

***

حين دخلت نادية حجرة العناية المركزة لم تستطع أن تمنع دموعها وهي ترى مجدي مازال مستسلما لا يملك من أمره شيئا كما تركته آخر مرة رأته، ملقى بلا حراك في غيبوبته. صعود وهبوط صدره حين يتنفس هما العلامات الوحيدة على أنه مازال حيا. ربتت نادية على وجهه بهدوء، وهمست معاتبة له :

أهكذا يا مجدي تكافئني على حياتنا معا، أهكذا تصيبني في قلبي الذي أحبك؟ أتعرف التقصير الوحيد مني كان أني لم أقل لك كم أحبك حين كانت لدي الفرصة. لن أقول أني سامحتك، ولكني سأقول لك إن حبي لك سيجعلني أنسى وأسامح. لن أقول إني أحسن منك وسأقف بجانبك؛ لأن وقفتي بجانبك لن تعيدك. أنا مجروحة منك ولكن عشرتنا ستمنعني من القسوة عليك. لا تجزع يا مجدي ستكون في يد الله قريبا وستكون في قلبي دائما.لن يطول الوقت قبل أن أنسى جرحك ويتبقى لي فقط طيبتك وعشرتنا الطيبة.

حين خرجت نادية من غرفة العناية المركزة طلبت أن تقابل طبيب مجدي. حين التقت الطبيب سألته إن كان بالإمكان نقل مجدي إلى بيته، شارحة له أنها تريده أن يقضي أيامه الأخيرة في بيته، وتريد أن ترعاه بنفسها وأنه لا مشكلة في أي تجهيزات أو أجهزة قد يحتاجها.

تفهم الطبيب طلب نادية وشرح لها الأجهزة التي ستحتاجها وإن كان أضاف أن الأمر قد يطول وأن المجهود البدني والنفسي الذي سيبذله المحيطون بمجدي في رعايته لن يكون بسيطا. أشار عليها أن الأفضل لها ولأهله أن يظل في المستشفى، وأن مجدي في حالته لا يشعر بالمكان الذي هو فيه، فهو أبعد ما يكون عن أي إحساس أو شعور بمكان أو زمان. كلمات وتحذيرات الطبيب لم تهز نادية، لن تترك مجدي لترعاه ممرضة لا تربطه بها رابطة ولا تعرف لها اسما. مهما طالت وامتدت غيبوبته، مجدي سيذهب إلى بيته حيث ارتاح دائما وسترعاه زوجته التي رافقته كل خطوة وكل لحظة من حياته.

***

المحامي كان قد أنهى نقل الأسهم لحازم ومها وشريف وهبة طبقا لتعليمات فهمي قبل ميعاد اجتماع الجمعية العمومية غير العادية للشركة.

كما جاء في خطاب الدعوة للجمعية الذي أعده عمر كالعادة كان هناك بندان للمناقشة:

الأول : قبول استقالة مجلس الإدارة. والبند الثاني : انتخاب رئيس وأعضاء مجلس الإدارة الجديد.

إجراءات شكلية تعودوها عبر السنين، اجتماع روتيني يحضره ممثلو مصلحة الشركات وهيئة الاستثمار طبقا للقانون سرعان ما ينفض دون إثارة أو جلبة.

تراص الحاضرون حول منضدة الاجتماعات في قاعة المؤتمرات المهيبة التي كانت معبرة عن قوة وعنفوان مجموعة الشركات. بدأ الاجتماع كالعادة بإثبات الحضور :

فهمي، حاضر بالأصالة عن نفسه،

عمر، حاضر بالأصالة عن نفسه،

يوسف، حاضر بالأصالة عن نفسه،

شريف، حاضر بالأصالة عن نفسه،

حازم،حاضر بالأصالة عن نفسه، وبالوكالة عن نادية،

هاشم، حاضر بالوكالة عن هبة،

تامر، حاضر بالوكالة عن مها.

أثبت مندوب مصلحة الشركات حضور المساهمين بنسبة مائة بالمائة وبالتالي صح الاجتماع وأصبحت قراراته ملزمة.

في أقل من لحظة قَبِلَ الحضور استقالة مجلس الإدارة الحالي وطبقا لنص القانون أبرءوا ذمة أعضائه. انتقلوا إلى البند الثاني، فأعلن سكرتير الجلسة فتح باب الترشيح لمن يرغب في أن يكون رئيسا لمجلس إدارة الشركة. فهمي أعلن ترشيحه كالعادة وتبع طلبه سكون لم يطل إذ قطعه إعلان شريف ترشيح نفسه للمنصب.المفاجأة والذهول لن يكفيا وصفا لحالة الحاضرين عند سماعهم إعلان شريف. نزل الصمت على الحجرة، ارتبك سكرتير الجلسة وتلعثم فلم ينقذه سوى أمر فهمي له بأن يبدأ إجراءات الانتخابات. عمر حاول القيام للتحدث مع شريف فأمسكه فهمي وثبته على كرسيه وكأنه يمنعه أن يعطي للشبل أكثر من حجمه. الانتخابات ستتم والفائز سيكون من يحصل على النسبة الأكبر من أصوات المساهمين. فهمي بقدرته الحسابية المشهور بها أدرك أن مجموع أسهمه وعمر ويوسف وهبة كافٍ لفوزه. حسنا يا ابن آمال، ستأخذ أصواتك أنت وحازم ومها ومعها نادية،لن يكفوك لنيل مرادك.جزء من فهمي تذكر شبابه

وحاول تفهم اجتراء شريف، ولكن الجزء الأكبر منه كان غاضبا منه وعليه؛ وإن كان غضبه الأكبر صب على آمال التي رأى يدها وراء ما يحدث. هي التي دائما تستعجل وصول ابنها إلى ما سيئول له مع الوقت دون عناء أو صراع. لن يعلنها حربا ولكنه سيؤدبهما هما الاثنين بعد الانتهاء من هذا الموقف المحرج. سيعلم شريف درسًا جديدًا في اختيار معاركه وحسن التخطيط لها وسيلقنه درسا في اختيار خصومه وتوقيت مواجهتهم.كتب فهمي اسمه في ورقة الاقتراع.

عمر كان في حالة اندهاش، معقولة يا شريف؟ أهكذا تريدها؟ ولكن فهمي منعه من حتى محاولة إثناء شريف عن جنونه.لابد أنها إحدى خطط فهمي التي وضعها وهو عارف بنهايتها ونتائجها.ولكن ماذا يمكن أن يكون الغرض من هذه الخطة ؟ هل يريد أن يثبت ليوسف أن اختياره تم برضاء الجميع؟ ولكن منذ متى يحتاج فهمي أن يثبت لأحد أي شيء؟ فيم يفكر فهمي بل كيف يفكر شريف؟ لا بديل في أن يكون أخوه وابنه متفقَين على هذا السيناريو. ولكن لماذا لم يشركه فهمي في تخطيطه ولماذا لم يحطه بأهدافه ؟عجز عمر عن الوصول إلى تفسير لما يحدث فاستسلم وملأ ورقة الانتخاب باختياره فهمي رئيسا لمجلس الإدارة.

أفكار كثيرة ملأت ذهن يوسف. سعد بجرأة شريف وإقدامه على هذا التحدي. هذه هي روح الشباب التي يجب أن تسود وأن تقود. إعجابه بشريف تساوى مع إعجابه بفهمي لقبوله ما يحدث وعدم تدخله أو فرضه لما يريد وتركه العملية الإجرائية تأخذ مجراها. إن ما يحدث منتهى

التحضر، تماما مثلما يحدث في العالم الذي سبقنا وتقدم. في داخله شيء من الفخر أنه حاضر لما يحدث. أما أكثر ما أسعد يوسف فكان القرار الذي توصل إليه فيما يخص اختياره : نظر يوسف إلى ورقة الترشيح وما لبث أن طواها خالية. لقد قرر التقاعد؛ ولذلك فقد قرر أن صوته يجب ألَّا يؤثر فيمن سيقود في فترة قادمة مقبلة لن يكون جزءا منها.

شريف كان قد أعد نفسه لما تخيله من ردود الأفعال المتوقعة من أبيه. إلا أن خياله لم يصل إلى رد الفعل الذي حدث فعلا. هل استسلم الرجل العجوز ؟ ولكن أباه أبدا لا يستسلم. إذًا هل أعد العدة وتوقع ما حدث؟ ولكن كيف يمكنه التوقع وشريف لم يبح لأحد بخطته؟ حتى أحاديثه مع الآخرين عن وجوبية التغيير كانت شديدة العمومية. هل حكى أحدهم لفهمي فجعله يحتاط؟ موقف فهمي جعل شريف مرتبكا لدرجة أن خطر بباله للحظة أن يكتب اسم فهمي في ورقة الترشيح حتى يأمن شره وانتقامه، وكأن ما قام به مجرد تجربة وتأكيد لالتفاف الجميع حول فهمي. ولكنه سريعًا ما طرد هذا الخاطر، لقد بدأ تحديا وعليه ألا يخاف وألا يرتجف حتى لو خسر لن تطول غضبة فهمي. وأكيد لن يكون انتقامه شديدا فهو في النهاية ابنه ورجاؤه في هذه الدنيا،حسنا ربما لا يكون رجاءَه الوحيد لأن لفهمي أهدافًا وطموحات كثيرة في هذه الدنيا. قرر أن ينهي تردده فكتب اسمه على ورقة الترشيح. فليكن ما يكون سيرى إن كان قد لعب بأوراقه جيدا وإن كانت حسبته صحيحة.

هاشم استرجع حديث السيارة مع شريف. أخيرًا فَهِمَ ما كان يرمي إليه شريف وتخيل منصبه الجديد ونجاحاته وإنجازاته التي هو محققها. انتشى بفكرة سفرياته المتعددة ودخوله على زملائه السفراء واستقبالهم له ممثلا للرأسمالية المصرية وزهوهم به كمستثمر مصري في البلاد التي يمثلون مصر بها. تذكر أن شريف وعده بأن يكون له نصيب من الأرباح التي سيحققها للشركة، سيكون هذا سبيله لأن ينفي عن نفسه شبهة زواجه بهبة من أجل أموالها. اختياره بدا واضحا ولكنه عاد فتذكر أنه في هذه الجلسة لا يمثل نفسه بل يمثل هبة وأسهمها. إذن لابد أن يصوت بما كانت ستصوت به هبة لو أنها حاضرة. هبة لم تكن لتخون والدها حتى ولو كانت الخيانة لصالح أخيها. ثم إن تربيته والمثل التي غرسها فيه أهله لا تسمح له بالخيانة. ولم يخن فهمي وهو لم ير منه إلا كل خير.قد يكون باردا في تعامله معه ولكنه لم يؤذه أبدا بل على العكس كان دائما يحسن معاملته. مد يده يكتب ترشيحه وهو سعيد أنه لا ولن يخون فهمي رئيسا لمجلس الإدارة، هذا ما كان سيكون اختيار هبة.

حين أعلن شريف ترشيح نفسه كان حازم الوحيد في الجلسة الذي ارتسمت ابتسامة على وجهه.ابتسامته كانت مرآة رؤياه نفسه على رأس مكتب الشركة في أمريكا حيث يتمنى. لقد فهم الصفقة التي عقدها معه شريف يوم تحدثا. صفقة بسيطة ملخصها:ساعدني في تحقيق حلمي لأساعدك في الوصول إلى ما تصبو إليه. ثم إن هذا هو التطور المنطقي وهذا هو تواصل الأجيال. أبوه رحل وخاله تقاعد فلماذا يتمسك فهمي

بكرسيه في وقت يتوق جيل جديد ليأخذ مصيره بيده؟ بالتأكيد هناك قسوة في الطريقة ولكن أي تغيير لابد أن يكون له ضحاياه.ولكن لماذا يضخم الأمور، أي ضحايا؟ سيرتاح خاله فهمي ويهدئ من الخضم الذي يعيشه. إنه قرار ممن يحبونه بأن يحوِّل طاقته إلى التمتع بما بقي من حياته. لا يوجد ضحايا، ولكنه مجرد وقت للتغيير وقد حان وآن أوانه. مازال حازم مبتسما وهو يكتب اسم شريف على ورقة الترشيح.

تامر، قرأ دعاء الاستخارة ودعا ربه أن يهديه حسن الاختيار.سيقود قطاع المقاولات إذا ما تسلم شريف الراية، والأهم أنهم سيتخلصون كما وعده شريف من ملكية الفنادق وما بها من فسق وفجور. وصندوق الزكاة سيجعله ينفق في سبيل الله على المساكين والمحتاجين.كل هذا من الإيجابيات شجعه على أن يدعو الله أن يبارك لشريف وينجح مقاصده. تذكر للحظة أنه موجود وكيلا عن مها. ماذا سيكون رأيها؟ ولكن أي رأي والقوامة للرجل؟ الرأي له بحكم الدين، ثم إن ما فيه مصلحته هو مصلحة لها. ألن تفرح به وهو يرأس شركة وقطاع المقاولات ويدير صندوق الزكاة والصدقات وينفق في سبيل الله. قرأ تامر الفاتحة في سره ثم كتب اسم شريف على الورقة وسلمها.

بدأ سكرتير الجلسة في عد الأصوات وربطها بنسب المساهمة،حين بدا أنه انتهى ظهر الارتباك عليه فما لبث أن بدأ من جديد في الفرز وحساب

نسبة المساهمات. حين انتهى من المراجعة رفع رأسه على استحياء، وبصوت خفيض قال:

أدلى بصوته تسعون بالمائة من المساهمين وامتنع عشرة بالمائة عن التصويت: الفائز برئاسة المجلس بنسبة تسعة وأربعين بالمائة مقابل واحد وأربعين بالمائة من إجمالي تسعين بالمائة هو: السيد شريف فهمي.

***

حين دخل يوسف غرفة مارجو بالمستشفى وجد فريدة جالسة بجانبها ممسكة بيدها وعلى وجه فريدة نظرة يأس واستسلام أعمق من تلك التي على وجه مارجو. كانت المسكنات والمهدئات قد أدخلا مارجو في شبه غيبوبة. كانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي من الممكن أن تسكن آلامها.

بدت مارجو وكأنها أحست بوصول يوسف فنظرت في وهن تجاهه ثم قلبت وجهها نحو فريدة وهي تشد على يديها وكأنها تطلب منها الاقتراب منها.حين وضعت فريدة أذنها بجانب فم مارجو لتسمع ما ستقوله فوجئت بها تطبع قبلة على خدها، ثم ما لبثت أن أدارت وجهها نحو يوسف وعيناها تدعوانه للاقتراب. حين اقترب يوسف من مارجو منتظرا أن تقبله هو الآخر سمع صوتها من بين أنفاسها المتلاحقة يهمس:

أشكرك.

في هذه اللحظة توقف قلب مارجو عن النبض وفارقت دنيانا،تماما كما أرادت، محاطة بمن أحبت دون شرط طوال حياتها.

لم تنم فريدة ليلتها ما بين بكائها على فراق أمها وابتسامتها كلما استعادت ذكرى لحظات حب وسعادة شاركتها فيها مارجو. لم تكن تبكي موتها قدر بكائها وحشة أدركت أنها لن تنتهي يوما برؤى أمها مجددا في دنيانا.

أحست أنها تود أن تفعل شيئًا خاصًّا لأمها في هذا اليوم الذي ستوارى فيه التراب؛ ستفعل شيئا كانت مارجو تحب أن تفعله. ارتدت ملابسها ونزلت من البيت عازمة أن تذهب إلى مكان طالما شغف به قلب مارجو.

حين دخلت فريدة «كنيسة البازليك» في مصر الجديدة انتابها شعور السكينة الذي طالما سيطر عليها كلما رافقت أمها أيام الآحاد إلى كنيستها. سلام وهدوء وجلال المكان كان دائما يهدئها ويجعلها في حالة روحانية. سارت إلى مقدمة المكان وجلست في الصف الأول. كان الوقت مبكرا ولم يكن هناك مصلون، في هدوء بدأت تدعو لأمها وروحها. دعت لها أن تكون في مسكن راحة عند ربها وأن تكون جنته مثواها. كانت مرتاحة إلى مصير أمها؛ إذ كيف لملاك أن يعاني. لقد كوفئت مارجو في دنياها بألم وعذاب مرضها وكأنها خلصت من آثار أي إثم قد تكون قد ارتكبته، وهي التي لم تفعل سوى خير طوال حياتها. سرحت فريدة في صلاتها ودعائها لأمها فكادت لا تشعر بيد القس تربت على كتفها برفق. ابتسامته طمأنتها فابتسمت له وطلبت إليه أن يصلي لمارجو ويدعو لها.

حين عادت إلى المنزل قابلها يوسف بحضن مملوء حنانا ثم ما لبث أن كرر سؤاله الذي لم يملَّه:

متأكدة يا فريدة أن هذه رغبتها ؟ لقد كانت مخلصة لدينها على الدوام.

ردت فريدة مؤكدة : يا أبي أقسم لك أن هذه رغبتها ووصيتها. لقد أرادت أن تدفن حيث ستدفن أنت يوما. أرادت أن ترقدا سويا متجاورين.

هذه كانت رغبتها، وهي التي أصرت أن تسجل في المستشفى باسمها المسلم لهذا الغرض. لم تتردد في قرارها وكانت واثقة من قبول ربها لها.

في مدفن الأسرة تجمعوا وجثمان مارجو يوارى التراب. نادية تتأبط ذراع يوسف من ناحية وأمه تحضنه من الناحية الأخرى.حازم ممسك بيد فريدة، ومها محجبة مظهرة وجهها الجميل بعد أن اعتزلت النقاب، تامر صامت غير مستوعب كيف تدفن المسيحية مع المسلمين، وبجواره شريف وآمال واقفتان دون مشاعر بادية.

هبة، كما هي ساهمة بجانبها هاشم مؤديا واجبه كما تربى. عمر كان دامعا على فراق القريبة إلى قلبه، في حين لم ينتظر أحد أن يحضر فهمي الذي انعزل عن الجميع منذ اجتماع مجلس الإدارة إياه؛ وإن عوض غيابه نعي ضخم لمارجو نشره في الأهرام وكأنه يعلن للملأ أنه مازال موجودا وقويا.

على استحياء وعلى بعد خطوة من الجميع وقف ديفيد.

حين أغلق القبر وبدأوا في الانصراف اقتربت فريدة من ديفيد وقالت له وسط دموعها :

«حين يجيء يومي أريد أن أدفن هنا »

رواية

ما وراء الأبواب

خلف الأبواب المغلقة ، دنيا مفتوحة على الأمل والألم ، الحب والبغضاء وكل الأنساق الأخرى التي تزخر بها ديالكتيكية الحياة ، تمر بنا أحداثها المتلاحقة في هذه الرواية ، لتكشف لنا حياة طبقة عالية من طبقات المجتمع وما يمكن أن تواجهه من مشكلات وأزمات ، أفراح وأتراح ، لا علاقة لها بالبعد الطبقي ؛ إذ لا يتبقى في غمرة الحياة وهموم النفس البشرية ، إلا البعد الإنساني الذي يتساوى فيه الجميع وراء الأبواب.

الناشـــر

• • • • • • •

"الكاتب ، هشام الخشن ، حكّاء من الطراز الأول . من أول فقرة في الكتاب يمسك بيدك بقوة ويحثك على السير معه والإنصات له حتى يُتم القصة كلها . وخلال ذلك يقدم لك أشياء جميلة حقًا : مشاعر عميقة توصَف بمهارة ، حوارات قص... لك بنجاح ما يجري في أذهان وقل... جرأة في وصف ميول غير عادية ، و... تقنعك بأن هذه الميول ممكنة الحد... مفزعة تحدث انقلابات في طر... شخصيات الرواية ، ولكن الانقلا... مقنعة جدًا فلا يبدو غريبًا بالمرة"



تصميم الغلاف: حسين جبيل





الدار المصرية اللبنانية